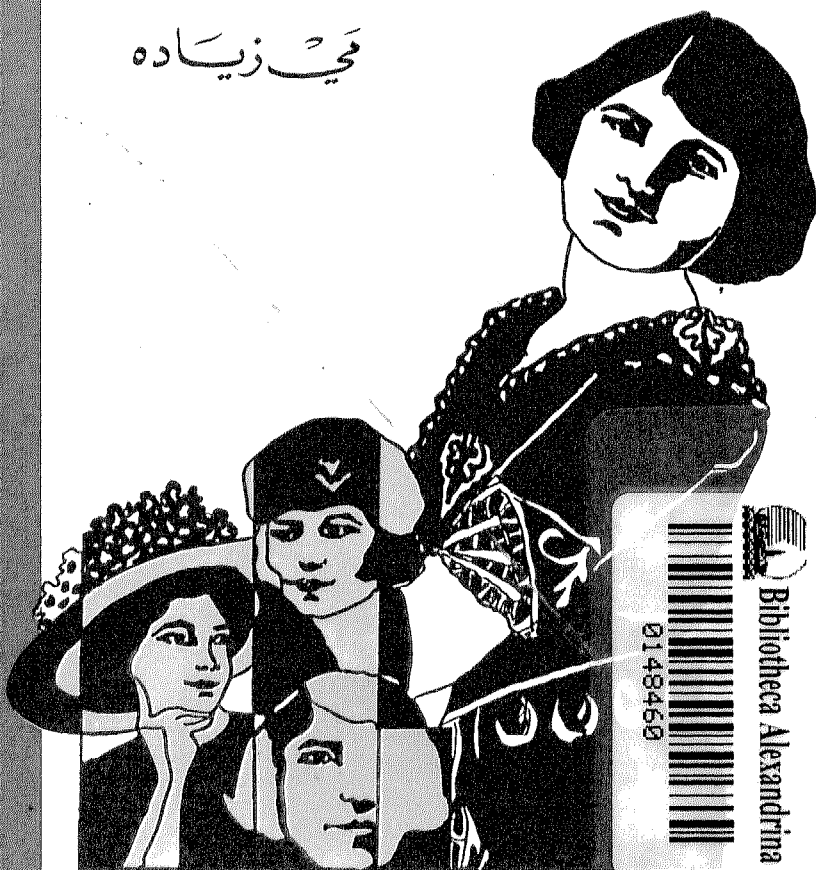


سوانح فتاة

مَيَّ زِيَادَه



مؤسسة نوفل

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة



مؤسسة نوفل شام

ميراث بنت

جميع الحقوق محفوظة للتأشير

الطبعة الثالثة

١٩٨٩



© مؤسسة نوفل شهرم

مكتبة نوفل، شارع الامتياز
مكتبة نوفل، ٣٥١٣٩٤، مكتبة نوفل، ١٢١١٠
مكتبة نوفل، ١٢١١٠، مكتبة نوفل، ١٢١١٠

فما يأتي صورة الرسالة التي وجهها وليّ الدين يكن بخطه إلى
الآنسة مي يناشدها فيها ضم سوانحها في كتاب .
ولا ريب في أن تلك الرسالة هي خير ما تُتَوَجَّ به هذه
السوانح .

الناشر

الاعتراف بالشدة العلة من

1915 1 2 2 2

2

و در آن روز که در کلام میگویم میبینی این
که او جات عالم - انا هیهنا - از قاری فضل باها
و بهوتی انا تلک الحاسه - ثم استوفی عرایضی - یعنی
بایسته ای که در این قدره - استخبات الله و تقی
نیت ازین و اوزرین .

نوازیدی ما آصف بجلست اربطی ام صوبت ارضی
ام کلومات البین ام فکت المیز. آقوی ما فقهه اللغات
یدعه عن فنی و بعیای عن الاما لیه ادب آلم

كانت لي في دولة القذافي - واليوم استأثرت
 في أكاداهوي في عيالي - استأثرت كالحيمة في كل
 بلدانها وتلك منقبة واستأثرت - ولا أقول
 إلا من سلفت من سيادة الرقة وليد من جاز قومه
 من سيادة الغربة ولا أقول لغير حماة الله وح
 فقلت بحمد واستأثرت معي وتكني أقول أنك بيل
 القدر والرضا في روضه الحياة -

وقد كان الله تعالى بالمدارك رتبة جوارحه البقوس
قد يتغير كاللاوراه التي تحذف في الرابع وتزوي في السواد
جميعه جنة غنة وكلية في - وروس هذه الايام - الشا
في حابة الماهة الاضام الالاية

هذه تمة تحية وساء اضوا تحت اقامك فاه
يلفت ذلك المقام فحيي
المستفوع
صالحه

الساكنة الأولى

نحن الفتيات أسيرات الأزياء ، وعبدات التبرُّج ، ولُعَب
الأهواء - أنكتب نحن فتيات اليوم ؟

نعم ، صرنا نكتب ليس بمعنى تسويد الصحائف فحسب بل
بمعنى الانتباه للشعور قبل التعبير ، لقد خبرنا الاختلاء بذواتنا
فأقبلنا على تفهم معاني الحياة نتفرس في المشاهد بأبصارٍ جديدة ،
ونصغي الى الأصوات بمسامعٍ منتبهة ، ونشوق الى الحرية
والاستقلال بقلوبٍ طروية ، ونعبر عن النزعات بأقلامٍ يشفع
الإخلاصُ في ترددها . إن الأمر كذلك . وجراتنا هذه لم تبدُ
من اللائي سبقتنا ، وإقدامنا لم يألفه الرجل من سوانا ، والجمهور
يرقبنا بنظرةٍ خاصة تائقاً الى تصفُّح نفس المرأة في ما تصِفُ به
ذاتها وليس في ما يرويها عنها الكاتبون .

وما الغرض من ذلك ؟

يزعم الجمهور إن رغبته في تذوق إنشاء المرأة لا تعربُ
عن إكباره لذلك الإنشاء ، أو عن اقراره بصدق الفراسة
منها . وإنما لأن في كتابتها مظهراً من مظاهر الذات
النسائية العامة .

خطوة صالحة نحو تكريم الأدب النسائي ، إلا أن فيها من
الظلم وغطم الحقوق ما فيها . نحن نحبُّ الحلم ، ونطلب
التساهل ، ونريد أن يستعان في الحكم علينا « بالظروف
الخفيفة » - كما يقول سادتنا الحقوقيون . نريد ذلك لأننا
مبتدئات . نريده لأننا مبتدئات ولأننا بنات يوم تشرق علينا
شمسه نخلق أنفسنا بأيدينا ، ونكتشف الطرق في غابات
مهجورة ، ونمهد السبل بين الصخور والأدغال لنا
وللاتيات بعدنا .

إفساح المجال علينا عسير . فنشكرُ للحليم تفاضيه عن
القصور في عملنا وانتباهه لضالة وراثتنا في عالم القلم - كما
نشكر للناقد الكئس ما يُبينه لنا من أغلاط ناتجة عن ضعف
الفتاة وقلة اختبارها . ولكنه لا يجوز في شرع العدل
والحقيقة ان تُرمى جميع أعمالنا بالضعف النسائي وأن يطلق
عليها الحكم بلا بحثٍ ومقارنةٍ .

لقد غالى بعض المفكرين ، لا سيما بعض الذين أقنعوا نفوسهم

بأنهم مفكرون ؛ لقد غالى هؤلاء في فصل المرأة عن النوع
الإنساني الذي كادوا يحصرونه في الرجل . والواقع ان كل
حمية تهز المرأة انما تنطلق من النفس الإنسانية الشاملة ،
وكل نقص يشوبها انما يرجع الى العجز البشري الشائع ،
وكل أثر من آثار ذكائها انما هو وجه من وجوه الفكر
الإنساني العام .

أحرصني على قلبك

أرْخَى الشَّفَقُ سُدُولَهُ عَلَى الْأَرْضِ بَطِينًا
وَلُفِقَتِ حَوَاشِي السُّحُبِ بِخُيُوطِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ،
وَتَلَاثَى مَا كَانَ يَبْدُو كَبَحِيرَاتِ الْيَاقُوتِ وَبُرْكِ
الزُّمُرُّدِ حِيَالِ عَرَّشِ الْغُرُوبِ ،
وَعَشَّتِ الْأَرْضُ كَأَبَةِ رَبْدَاءُ ،
وَعَشَّتِ عَيْنَيْكَ كَأَبَةِ رَبْدَاءُ ؛
أَيُّ شَمْسٍ تَغِيبُ فِيكَ ، أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ ، وَلِمَذَا يُشْجِيكَ الْمَسَاءُ
لَتَغْشَى عَيْنَيْكَ هَذِهِ الْكَأَبَةُ الرَّبْدَاءُ ؟
أَلَا أَحْرِصِي عَلَى قَلْبِكَ ، أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ !



تَجَلَّتِ الشَّمْسُ فِي الْأَوْجِ تَحْتَ رَوَاقِ الْفَلَكَ ،

والأشعة تغازل الأزهار وتوسع المياه عناقاً وتلويناً ،
والمنازل تسطم كحجارة كبيرة من نور ؛
وانتعثت جميع الأشياء انتعاشاً من خرج من أزمة وانفرج ،
أما أنت فتلوين جائعة عطشى ،

تقولين ما يجب ألا يقال وتفعلين ما يجب ألا يفعل ،
ثم تأسفين على القول والفعل وتعودين تلوين —
ووراء الملل والسامة وهيج فيك واحتدام ؛
اخبريني ما بك ، أيتها الفتاة !

لماذا أراك عند نافذتي ترقبين ما ليس بالموجود وتشتافين
ما ليس بالبادي ؟

وإذا تحولت عنك إلى مرآتي رأيت هناك وجهك
مفجعاً حزيناً ؟

أهو أمل غزا نفسك فثقل على فؤاد منك اعتاد القنوط ؟
أم قرب تهليل الأمل يأس ينتحب وشعور بالفشل طالما
خالط الرجاء ؟

جميع الأشياء انتعثت انتعاشاً من خرج من أزمة وانفرج
وأنت أي علة تضنيك فتلوين وتتاوهين ؟

ألا احرصي على قلبك أيتها الفتاة !



جاء المساء مرةً أخرى ؛ جاء المساءُ وتبعه الليل
وعيناك قرب السراج جامدتان جمود من يتأمل جنة
فأشعر بأن شيئاً فيكِ أمسى جنة
لقد استسلمت لجمال المساء فطعنك المساءُ بسكينٍ منه سريٌّ
يقطرُ دماً وظلاماً

أخضعتِ نفسك لسحرِ الغروب ولم تحرصي على قلبك !
أما الآن وقد فرطتِ به فاحرصي على الجرح المنفتح فيه -
احرصي على جرح قلبك ، أيتها الفتاة !

ذكرو قلعة بعلبك

« معبد للأسرار قام ولكن صنعه كان أعظم الأسرار »

خليل مطران

تحرّك القطار صباحاً في محطة بيروت وهو يهدر ويزجر
ويقذف دخاناً كثيفاً أثقل الهواء وتراعى على صفحة الأمواج
فمكر صفاءها . وما فتىء زئيره الهائل كزئير الأسود يتردد
في جوانب الفضاء حتى كاد الصدى منه ينتهي إلى أخربة بعلبك
هامساً « لقد سبقت الآخرين لأهزأ بك ، يا أشباح البلى ، اهزأ
بك في نقمتي على أناس يستخدمونني أنا احدى آيات الاختراع
الحديث ليزوروك - انتِ رمال الليالي الغاديات وبقايا الأيام
الحوالي ، !

وما لبث ان اسرع القطار في سيره متلوياً بين الأشجار ،
وكان سخطه هدأ تحت قبلات نسيم الجبال فخف زئيره ؛

وتدرّج متسلقاً اكتاف لبنان يتركُ محطةً ويرُ بأخرى حتى
 وقف في محطة صوفر ، وهي أعلى نقطة فوق وادي حمّانا —
 ذلك الوادي الذي قال فيه لامرّتين انهُ أجمل أودية العالم
 القديم . هناك تتطوّى التلالُ كالأقمشة الحريرية وتمتد لمداعبة
 اطراف الجبال المحاذية ، تتناسق بينها دوائر أظلمتها الأشجار ،
 وتخللها القرى ذوات المساكن البيضاء متوجّة بالقرميد
 الأحمر . وهناك ، هناك على الشاطئ البعيد ربضت الآكام
 كأسود تحمي مجراً بسط لديها زرقتهُ الفسيحة وارتفع عند الأفق
 كمن يستمدّ من الجوّ نعمةً ما . هذا ويبروت تستوي على شفة
 البحر استواء المليكّة على عرشها .

ثم أخذ القطارُ ينحدر الى سهول البقاع وقد قامت على
 جانبيها سلسلتا جبال لبنان وانقي لبنان كما تحديق اسوار الدهر
 بمروج الأبدية . وبعد السير في السهل نحو ثلاث ساعات تراءى
 لنا في عصارى النهار طيفُ مدينة « باعال » يحيط بها نطاق
 سندسي من شجر الفاكهة والخور الزجاج ، وتعالى فوق
 المنازل منها والحدائق أعمدةُ هيكل الشمس بقدودها الهيفاء .
 أعمدة ستة هي كل ما سلم في وسط ذلك التهديم ، وكأنها من
 أبعاد وحشتها تنادي المسافر قائلة : « تعال انظر إليّ أيها
 المار » ، فهل عرفت حزناً أشد من حزني ؟

بقية عظمة من عظمة بائدة حيالها أضخم الأشجار
أعشاب ، ذاك هو شبح الماضي المحاول تخليد الأصنام
المعبودة ... وثلوج لبنان التي رأت يوماً من مدينة الشمس أبراج
العز متعالية في الفضاء ، تطل الآن من شاهق « قم الميزاب »
و « ظهر القضيب » مستفسرة عن سرّ هدم المعابد والأبراج .

منذ ألوف الأعوام والثلوج تتراكم على هذه الذرى .
فالشمس تشرق ثم تغيب ، والصيف يأتي ويذهب الشتاء ،
وقلعة بعلبك موحشة في عظمتها المحطمة ؛ بينا ثلوج لبنان تطل
عليها مستفهمة أيّ خطب جرى ولكنها لا تفهم .



تجسّم حزني وجثا عند أعتاب القلعة باكياً . ولست أدري
أبكي هناك أسفاً على أعجوبة الدهور أم اكتئاباً لمشهد درجات
أوجدتها هناك يد الغريب .

عند مدخل هذا الهيكل الذي ألقت أسسه شعوب شرقية
جاء الأجنبي يضع درجات توصله الى معابد الشرق القديم .
مشهد أقدم نفسي غمّاً كأن هذه الحجارة ثقلت عليّ لأنها دليل
تدخل الغربيّ في قديمنا وجديتنا ، وعنوان طمعه في الاستيلاء
على بلادنا . وكان أحمرى به أن يتركنا وتراب هياكلنا الغالي

دون ان تأتي يده عاملة للترميم والإصلاح - ومدنسة ما قدسسته
دهور البلايا وعزّزته بلايا الدهور .

دخلتُ امشي الهويناء بين اكوام الأخرية وبقايا الأبنية ،
بين الأعمدة المطروحة على الحضيض كالعلاقة ورؤوس الأسود
المتعانقة في تهشمها عناقاً أبدياً ، بين آثار شعب لاحق تختلطُ
بآثار شعب سابق ، والتراب يتراكم في كل مكان متجمعاً في
الأفاريز المرضضة والنقوش المحفّرة . مشيت في عالم مشوه من
البدائع الفنية دهشة كيف سطا الزمان عليها ، كأنها غابة
هاجتها الزوابع فكسّرت منها الأشجار ، واقتلعت الأصول ،
وتركت الأغصان ملقاةً على حضيض الهواء .

أين من هذه الضخامة والمتانة قصور عصرنا وصروحها !
انها لتخال الأعيب صيدانية شيدت ساعة فراغ ولهو ، فيها
الحصى تقوم مقام الحجارة والأشبار منها توازي الأميال .

لقد تألّبت الشعوب على هذا الهيكل فهاجمت جدران
مجده وخرّبت بديع معاله . وحوّل المسيحيون جانباً منه إلى
كنيسة فشادوا المذابح على قوائم معابد الأصنام . ثم انقلبت
الكنيسة وما يحيط بها قلعة اسلامية حتى فاجأتها الزلازل
فتخلّجت منها الأسس وانهارت الجدران ، ودكت ذلك العزّ
إغارات الطبيعة بعد أن طفت عليه يد الإنسان .

لكن آثار المجد في بعلبك ظاهرة باقية . والنفس العصرية
تقف مترددة بين الهزوء والاحترام أمام معابد آلهة خرافية تضحكننا
الآن أسماؤها ، وتتعاقب عليها مشاعر جمة من خوف وشفقة
وإعجاب وسخرية لتتغلب عليها عاطفة تظم في رحابها قوى
النفس جميعاً ، وهي الشعور بعمق السر العظيم ، سر البقاء
رغم الفناء ...

وهناك على مرتفع هيكल الشمس تقف أعمدة ستة حاملة
إفريزاً كأنه تاج مكسّر تنحني تحته رؤوسها على وهدة عزّها
المتفتت . وما انخفاء تلك الأعمدة إلا رثاء وتأبين ، بل هو
التأبين الوحيد اللائق بهيكل بعلبك ...

وثلوج لبنان التي تجهل أي خطب جرى تنظر من على إلى
حزن الجماد الدهري وتودّ أن تفهم علة انهيار الجدران والأعمدة
والأبراج وأنى لها أن تفهم ...



ألا كسروا باليأس الأقلام ، وأزيلوا المداد عن الطروس ،
وأسكتوا الشفاه المتكلمة ، وألجموا الأيدي عن التعبير
والكتابة !

رائحة الأكفان تفوح لدى هذا التهدم الشامل وتتكشف معاني

القبور ، وينتشر في الهواء عطر المجامر وتُعقد غيومَ البخور ،
وتعود الأيدي القديمة الى نحر تلك الضحايا والقرايين على أنصاب
لاشتها يدُ الدهور .

كسروا الأقلام ومزقوا الطروس ! انما هذا موقف لا تأبين
فيه بغير حزن الجهاد ولوعة النفوس .

أحزن الجهاد لا زلتَ للأفئدة مفطراً ما طرحت عِبرُ
الزمان الجبارة على حضيض الهوان ! ألوعة النفوس ، لا زلتِ
لاذعة ما بُثرت سلسلة الآجال واعتلت حركة القلوب ! آثار
الحياة ، لا زلت عالية كآمال المنى وسواد العيون ما ذوت
الآمال بالتأمل وما بيّض سواد الموتِ سواد العيون ! أأعمدة
بعلبك ، لا زلتِ مهشمة ، صامتة ، منحنية ، كئيبة ما سعى
ديبب المنى في زوايا المهج وتمايلت أشباح الآلام والأوجاع طيَّ
القلوب والصدور !

إذا هزأ الدهر بهذه الجدران المنيعه فماذا أنتم من الدهر
منتظرون ؟ إذا مرت قدمُ الدهر على هذه المتانة الحصينة
فهرستها هرساً فماذا تعني بعد ذلك حركة قصبتم الضئيلة ونقش
طروسكم البالية ؟ أين من المسافة موضعها وما هو من الخلود
نصيبها ؟

ضموا إلى شفاهم الأقلام وإلى قلوبكم الطروس ، دعوها

تنطق ياساً وحباً باسم قلعة بعلبك . ثم حطّموها وإن عزّت،
ومزّقوها وإن كانت شطراً من الأرواح .

الزمان يتابع المسير فويلاً لتربة تدوسها قدمه ! هناك تزلزل
الزلازل ، وتهدم السدود ، وتطغى البحار ، وهناك يشعر الإنسان
بأنه 'عبد لحظات الأقدار وأنه 'لا يعرف من أسرار الأرض غير
اسوداد الليل وابيضاض النهار ...

(كتبت في أواخر سنة ١٩١١)

قتل النفوس

رأيتها تنظر إلى الأشجار بعينين كئيبتين وشتاتها مطبقتان
كأن قبلة الأسف طُبعت عليها . كانت لي رفيقة في الصغر :
تعلّنا شهوراً في مدرسة واحدة ، ودرسنا أمثلةً واحدةً ،
وسمعنا إرشاداً واحداً ، وكبرنا فكانت تلك العلاقة الواهية
متينة بيننا .

قلت « مالي أراك حزينة ؟ »

قالت « يحزنني الربيع »

قلتُ « أخبريني ما بك ! »

قالت « يحزنني الربيع . يحزنني أن أرى مواكبه الجميلة تسير
في الفضاء فلا يراه البشر إلا من كوى ضيقة مُنقبت في الجدران
الحديدية التي أقامها المجتمع حول الأرواح . ويحزنني ألا أكون
مستقلة بكوّتي وأن يكون للآخرين حقوق عليها يفتحونها
ويغلقونها كيفما شاؤوا لا مثلاً أريد » .

قلت « ماذا يحزنك » ؟

قالت « يحزنني الربيع . تحزنني هذه الأزهار الزرقاء والصفراء والحمراء . انها تتورّ على أطراف الأغصان وتبرز جمالها وسط جمال الكون . انها تستنشقُ الهواءَ بكل ما فيها من قابلية وتتمتع بالحياة بكل ما فيها من استعداد . فلماذا تُقدّر على بني الإنسان أن يكونوا دون النبات حريةً » ؟

قلتُ « قولي لي سبب حزنك » ؟

قالت « مسألة تافهة أعادت اليّ التأمل في هذا الصباح كما نبهتهُ فيّ قبل الآن . لي شقيقة تقطن الاسكندرية مع زوجها - ولي بها ولها بي ولع عظيم فنتكاتب مرةً في الأسبوع . على أن تمرّ رسائلها تحت نظر والدي والوالدي وأخي وأختي وأخي الأصغر حتى تنتهي إليّ بالتالي لأنني أحدث افراد العائلة سنًا . ولا يُلقي خطابي اليها في صندوق البريد إلا بعد أن يطلع عليه وينتقده ذويّ . مع ان مراسلتنا عادية ساذجة ، لا أهمية لها إلا بكونها جزءاً من حياتنا . وليس لديّ من سرٍّ أخفيه ولكني أريد ان احفظ حقي في أن يكون لديّ أسرار . وهذه المعاملة تعذبني منذ شهور لأنها تمّ عن ضعف ثقتهم بي وأنا لم افعل قط ما يستوجب سوء الظن . وصرتُ أتألم كلما وردت إليّ رسالة لأنها تذكّرني بأن في بيتنا قلم مراقبة منظم » .

ورفعت رأسها ناظرة إلى الزهرات الفرحة بأنفاس الربيع

وأرسلت زفرةً عميقة ، ثم قالت « معاملة كهذه تحملني على الشك في صلاحتي وكرامتي . وقد يدفعني الفيظ والكبرياء الى فعل ما لا أفعله لو كانت لأهلي بي ثقة . التبت حرٌ فلماذا لا يكون الناس أحراراً ؟ »

مسألة نافذة في ذاتها . ولكنها تتكرر بين الوالدين والأبناء فتفضي إلى أحد اثنين : التمرد أو العبودية وكلاهما سيء . بل العبودية وحدها ممقوتة والتمرد نبيل في الغالب يدل على القوة والحياة . ولكن كثيراً هم الأبناء الذين يجدون ضغط الوالدين على حريتهم أمراً طبيعياً فلا يتألمون لأن نفوسهم عقيمة قاحلة لا ينمو فيها غير الشوك والعوسج .

يتألف التهذيب من أعمال وحركات متتابعة مدة أعوام بين الآباء والأبناء كما يتركب تمرين الأعضاء من حركات مستطردة يأتونها الفرد في أوقات معينة فتكسبه خفة ورشاقة وانتظاماً .

وإن لم يروض المرء أعضائه ضعفت وأمست ضخمة الشكل بطيئة الحركة ، وقد يذهب به الجلود الى فقد الصحة . فما الخلل الذي نراه الآن في تربيتنا إلا نتيجة جمود الأعضاء المعنوية من نشء الأجيال الماضية ولأننا جميعاً عبيد الجهل المقيم والضغط القديم .

لماذا تراقب مراسلات الفتيات ؟ سمعت عن رجل ينهي

شقيقته' عن مراسلة صديقة لها خوفاً من أن يطلع أخوها على تلك الرسائل ؛ ثم اتصل بي ان ذلك الرجل الذي يظن نفسه 'حراً ألبياً (!؟) يقضي ليله وشقيقته هذه حول طاولة البوكر مع شبان آخرين وفتيات أخريات ؛ ورأيتة وإياها يجتسيان الجمعة في حانة يتصاعد في جوانبها لاث السكارى ؛ ورأيتة فيما بعد داخلها عارية النحر والذراعين الى المرقص لتنتقل على وفق الإيقاعات الموسيقية من يد رجل الى يد آخر . فضلاً عما يحيزه « تمديننا » الحديث من مداعبة كلامية يسميها الغربيون « فلورت » ويستعملها كثيرون منا دون أن يحاولوا إيجاد اسم لها .

فكيف نوفق بين التقيضين ؟ بين التساهل في قبول العادات الأوروبية المتفشية بيننا وبين الاستعباد الشرقي الراكد في مستنقعات نفوسنا ؟ ان هذا الخلل في توازن التربية يعذب الشبية ويجعلها أليفة الحيرة والتردد جاهلة بها قيمة الحياة . انما الحياة في قيمة ننسبها اليها . فكيف نهتدي الى قيمة الحياة التي لا تبرز إلا للفتنة المتيقظ الواصل من حريته في القول والعمل - كيف نهتدي اليها في هذا التناقض المبين: تناقض الضغط الشديد والتهور المجازف ؟ .



انما التربية ترمي الى غاية واحدة هي توسيع دائرة الحياة

وتأهيل الفرد للسير بحذق والتصرف باعتدال بين تشعب الشؤون
مستخرجاً وسائل السعادة والفائدة مما يحيط به . فإن لم تكن
هذه الغاية نصب عيون الوالدين ولم تثقف الناشئة على مبادئ
التهديب القويم فقدت آمالنا بالمستقبل القريب . وأول قواعد
التهديب معرفة الواجب ، وشرط معرفة الواجب الشعور
بالحرية .

أقول الحرية وأعنيها ، وهي ليست الإباحية كما يزعم
كثيرون . والفرق بينها أن للواحدة حدوداً تهدمها الأخرى
وتتجاوزها .

على الوالدين أن يقوموا بما عليهم نحو الأبناء ثم فليتركوهم
وشأنهم يأتون ما يميلون اليه والضمير الحي يراقبهم والخلق القويم
يحميهم . فإن جاء عملهم بخير كان فيه تعزية وتشجيع على المثابرة
والإقدام ، وإن جاء بشرّ كان أمثلة مفيدة ومادة اختبار
يلتفع بها في الكوارث والرزايا المألثة سبل العمر .

كل امرئ يحيا حياته وعليه أن يجد طريقه بين متشعب
المسالك ، وهو مسؤول عن كل عمل يأتيه ويتحمل نتائجه ،
إن فائدة وإن أذى . فالفتاة التي اعتادت الانقياد لأراء والديها
وعجزت عن اتيان عمل فردي تدفعها اليه إرادتها بالاشتراك
مع ضميرها ، ما هي إلا عبدة قد تصير في المستقبل « والدة »
ولكنها لا تصير « أمّا » وإن دعاها أبناؤها بهذا الاسم . لأن

في « الأمومة » معنىً رفيعاً يسموا بالمرأة إلى الإشراف على النفوس والأفكار ؟ والعبدة لا تربي إلا عبيداً . ولا خير في رجالٍ ليس لهم من الرجولة غير ما يدعون ، انهم سادوا فعلوا بالقوة الوحشية وهي مظهر من مظاهر العبودية . أولئك سوف يكونون أبداً أسرى الأهواء وعبيد الصغائر الهابطة بهم إلى حيث لا يعلمون ، إلى الفناء المعنوي ، إلى الموت في الحياة .

تربيتنا الناقصة جعلتنا نسيء الظن في كل شخص وفي كل أمر . ريح سموم تهبُّ على المجتمع فتصبغ الجو وما يحويه بلونٍ قائم خبيث . ولو أنصف الناس لحكوا على بعضهم بعدلٍ وصدقٍ فأراحوا واستراحوا . الخير أصلٌ في الحياة وليس الشرُّ شراً إلا لأننا أشرار ، ولا ظلام حولنا إلا الظلام المنبثق من شكوكنا وأحزاننا ومطامعنا .

احتياجنا شديد إلى مثل هذه الكلمة « ثقوا بالإنسان » !

اما جاءكم خبرُ ذلك العالم الألماني الذي كان يدفع إلى ابنته البالغة من العمر ١٦ سنة رسائلها مختومة . ولما لامه أحدُ أصدقائه أجاب « ثققي بالفطرة النسائية عظيمة . لا أقرأ رسائل ابنتي بل أعرض عليها رسائلي . وعوضاً عن أن أشحن دماغها بآرائي ونصائحي التي قد لا تتفق مع ظروف حياتها أسأله

رأىها في كل ما يشكل عليّ من الأمور . فالمرأة أوفر من
الرجل نبلا لأنها أقرب منه إلى سرائر الأحوال وقلب
الأشياء .

مع هذا الرجل الحكيم أقول « ثقوا بيوهر المرأة ! ثقوا
بأينة اليوم تجدوا أبناء القند أهلا للثقة » !

(ابريل سنة ١٩١٣)

وسا نلنا اليوم ويا لأمس

بعض الأوامر السلطانية تستوقف نظر الأديب برشيق أسلوبها وبليغ إيجازها . منها الأمر الذي صدر بتعيين صاحب العزة محمود فخري بك^(١) أميناً أول لعظمة السلطان . وما دامت سراي عابدين تهتم بأساليب الإنشاء فحق للحي الأدب أن يرجوا . ولو كنت رجلاً وجاز لي البحث في ما يختص بالرجال لتمنيتُ لدواوين الحكومة أن تحذو حذو السراي السلطانية فتتوب عن اللغة والأسلوب السقيمين المستعملين في أوامرها ومراسلاتها .

اسمعك مزجراً يا سيدي الرقيب ، وقد اقترب قلبك من جلتي هذه يقصد الفتك بها . فاصنع إلي غير مأمور ! لا أنت جندي ألماني ولا أنا جندي فرنسوي ولا هذه الصفحة كنيسة

(١) حضرة صاحب المعالي محمود فخري باشا .

رئيس . فكن حليماً ولا تحذف منها شيئاً . ثم أرجو أن تذكر
 أني بدأت تلك الجملة بكلمة « لو » ، وهل أنت ممن يخفى عليه
 قول الفرنسيين بإمكان وضع باريس في زجاجة اذا ما استعملت
 كلمة « لو » ؟ ولا أظنك محتجاً على وضع باريس في زجاجة ،
 على شريطة أن تكون الزجاجة غير ألمانية تملأ بالغازات السامة .
 وإني لموافقة على ذلك . وكل هذا الكلام أقوله لأنسيك شطب
 تلك الجملة الأثيمة – أنساكها الله !



لقد تحسن فن الإنشاء في أيامنا . بالأمس كانوا يكتبون
 طويلاً دون أن يقولوا شيئاً إذ لم يكن معظم الرسائل غير استعارات
 محفوفة وأسجاع مرصوفة . فبعد « غب الشوق » الأصولية
 كان مراسلك يبعث إليك « بسلام ، لو كان ذا أجسام للأرض
 بالتمام » – دون أن يترك للأرض هامشاً ! و « بتحيات أزكى
 من النعامي (أو من « نفس النعامي » لا أدري) بين ورق
 الخزامى » . كذلك يبدأ الخطاب بالسلام والتحيات والأشواق
 ويختمه بالأشواق والتحيات والسلام .

أما الآن فأخذنا نكتب لنعتبر عن شيء نريد أن يفهمه من
 مخاطب . فإذا اطلعت على رسالة تيسر لك الحكم على ذوق كاتبها
 ومعارفه ودرجة تربيته ومكانته الاجتماعية . فأخذ ينطبق علينا
 مبدأ « الإنشاء هو الشخص » .

غير أن أهل الذوق وُجدوا في كل آن وزمان . وبيننا كان
المجموع يملأ صحيفة الرسالة بالمبالغة والإغراق كانت الخاصة
تكتب كتابة الإيجاز والبلاغة . كل منا يعرف رسالة المتنبي إلى
صديق كان يعود في مرضه فانقطع عنه بعد الشفاء فكتب إليه
المتنبي يقول : « وصلتني ، وصلك الله ، معتلاً ، وقطعتني مبلأ .
فإن رأيتَ أن تجب العلة إليّ ولا تكدر الصحة عليّ » ، فعلتَ
إن شاء الله » .

وتُحسب هذه الكلمة من بدائع الإنشاء .

لقد كان خاصة العرب أهل ذوق وكفاءة . فاحررنا
الاحتفاظ يجميل الموروث بيننا نتقف أفكارنا وأقلامنا على
نافع المكتسب .
(١٩١٥)

بين الدكتور شمیل

والکاتب الأمريكي

منذ شهرين تقريباً نشر الدكتور شبلي شمیل رسالته إلى العالم الألماني هکتل ، باللغة الفرنسية ، وأردت أن أعرف رأي الأجانب في الرسالة ومؤلفها ، فبعثتُ بها إلى كاتب أمريكي زار مصر وأحب وادينا حباً جماً . وشفعت الرسالة بتفاصيل عن الدكتور وأطواره الغريبة التي تجعل له شخصيتين تكاد الواحدة منها تناقض الأخرى . وأخبرتهُ أن الدكتور شمیل غاضب على الأمريكيان لأنهم لا يساعدون الحلفاء على دحر ألمانيا ، وإنه يقول عنهم انهم أنانيون . فجاء الجواب وها أنا أنشره ضاحكة ، لأنه يهمني كثيراً أن يتخاصم الرجلان وهما على مسافة ستة آلاف ميل بين الواحد والآخر :

« قرأت باهتمام ما كتبته عن الدكتور شمیل ورسالته

إلى هكتل ، وسأبعث بنسخة من هذه الرسالة إلى المستر روزفلت .

يسرني وجود رجل كالدكتور شميل في الشرق لأن هذا الرجل لازم لهدم الأفكار القديمة التي يتقبلها الناس بلا بحث ولا جدال ، كأن ليس لأفكارهم أهمية إلا بقدمها . أفكار يزيد في ثقلها صدأ الأجيال ويحاول حفظها التعصب الذي يحيط بها بقوة ودقة كأنه نسج العنكبوت . فأمثال الدكتور شميل يمزقون خيوط العنكبوت ويبيدون الصدا وقاعدته دفعة واحدة ، ولا بأس من هيجان المجموع لهذه الفوضى ، فهياجه ضروري بل لا بد منه . أمثال الدكتور هم العنصر الهادم ما في الجمعيات والأديان من الغلو والإفراط ، وهم فاتحو الطريق للذين سيقومون أسساً جديدة ملائمة لمطالب العصر ومعارفه . والآخرون لا يتمكنون من العمل إلا إذا عمل قبلهم الأولون .

تعجبين لماذا لا يشيد الدكتور شميل أثراً مكان الأثر الذي يهدمه . لكن لا عجب في ذلك . اذكري ديكارت تعلّمي أن الأمرين لا يُطلبان من رجل واحد . فالطبيعة وحدها مدمرة معمرة .

أما ما في أخلاق فيلسوفكم من التناقض فلا بد أنه راجع إلى الوراثة ، فأم بالظروف . لا بد أن يكون الدكتور عنيف الطبع حاد المزاج ، ولهذا الخلق جماله . على اني أحب الخلق

الهاديء الذي يترك الآخرين يتخاصمون حتى اذا ما سمع ما يقولونه من الحقائق والخرافات أعرض عن الترافه من أقوالهم وتمسك بالصواب . فلا يتحول عنه ، بل كلما مرت الأيام زاد به ثقة وحباً .

« لا أدري لماذا يقول الدكتور شميل أن الأمريكيين أنانيون . هل عرف حضرته بعض أبناء وطني فحكم على أمة لأجل أفراد ، أم هي فكرة تناقلتها الألسن والأقلام فأثرت في فكره ؟

« ما هي البينات التي تقنعه بأن الأمريكان أكثر أنانية من غيرهم ؟ أود أن أسأله إذا حلت على العالم الولايات فمن يسارع إلى المساعدة قبلنا ، ومن يفتح قلبه وكيسه قبل أبناء أمريكا ؟ كم من الملايين أرسلت إلى الحلفاء في هذه الحرب الطاحنة ؟ غذاء بلجيكا وكساؤها يذهبان من وراء البحار وأمريكا ترسل اليها ٣٦ مليوناً شهرياً . بعض السيدات من أجمل نساء أمريكا تركن أزواجهن وأولادهن وذهبن لمعالجة الجرحى في ميدان القتال . الرجل الأمريكي أحسن زوج في نظر الفتاة الإنجليزية ، لا لأنه أناني ، بل لأنه يحترم المرأة ويعترف بمواهبها العالية ويعاملها المعاملة التي تستحقها رقتها وسمو عواطفها . أعظم المستشفيات في باريز أمريكية وينفق عليها من ثروات أمريكية فردية . قد يرى الدكتور شميل في كل هذا أنانية ، ولكنها أنانية كريمة جميلة . »

« العالم الجديد جديد في كل شيء . اختباره ، واعتقاده ، وعمله وأسلوبه ، وحريته . ولكن ليس فيه الأناية التي تظنون . »

« تضحكين من أمريكا لأنها تبعث باحتياجاتها مينة ويسرة . وأنا أضحك . صحيح اني لا أريد أن أكون في موقف الدكتور ولسن في هذه الأيام . ان هذا الرجل المسكين لا يدري على أي رجل يرقص بين عشرة ملايين من الأمريكان الألمان المحتجين في أذنه اليمنى ، وباقي ملايين الأمة المحتجة في أذنه اليسرى ؛ هذا مع حالة المكسيك الحاضرة التي تكاد تشتعل اشتعلاً » .

« أمريكا رغماً عن شعبها الألماني الأصل تجاهر بميلها إلى الحلفاء بلا خوف ولا تردد . لا أعني الحكومة بل الشعب . هناك أمر لا يحتمله أمريكي حرٌّ ربي على فكر الحرية وشرب لبنها كما شربه من قبله آباؤه - وهو مهاجرة بلجيكا وغزوتها . هذا لن نغفره لألمانيا قط » .

« قولي هذا للدكتور شميل إذا شئت . واسأله أن لا يصدق كل ما يكتبه عننا كتاب فرنسا والمجلد كما اني لا أصدق شيئاً مما يكتب عن الشرق والشرقيين . قولي له ذلك واهديه احترامي » .

ها أنا قلت لك ذلك وأهديتك احترامه مشفوعاً
باحترامي ، يا سيدي الدكتور . أفعل ذلك مترقبةً بعض
صواعقك عربية كانت أم فرنجية ، فقد أوحشتنا كثيراً
نارها العذبة .
(١٩١٥)

نقلت جريدة « الأوبار » فقرة من هذه الرسالة

فأرسل أحد القراء إلى الجريدة الاعتراض التالي :

الأفكار القديمة

ومراسل الأنسة مي

مكاتب حضرة الأنسة مي الذي نشرت الأخبار شيئاً من كلامه نقلاً عن المحروسة . لا نعرف منه سوى انه « مسرور من وجود مثل الدكتور شميتل في الشرق لأن هذا الرجل لازم لهدم الأفكار القديمة التي يتقبلها الناس بلا بحث ولا جدال الخ » فنهىء حضرة الدكتور بهذه الخطوى - ولكننا نأخذ على حضرة الكاتب خوضه في مثل هذا الموضوع الخطير بكلام خيالي شعري هو من الإيهام بحيث لا يفيد إلا التضليل وامتهان النفس بأشرف عاطفة فيها .

تدل القرائن على أن حضرة الكاتب يريد « بالأفكار القديمة »
العقائد الدينية كالإيمان بإله كامل سرمدي الخ . مثلاً مما تخضع له
العقول على سموّه وعجزها عن فهم كنهه . فمثل هذه الأفكار
على قدميتها - ثابت على أقوى الأساس والبراهين التي طالما
احتك بها المتفلسفون وصقلتها الأجيال فلم تزدها إلا
إرهاقاً .

وأنا وايم الحق لنستغرب من الكاتب امتعاضه من تلك
« الأفكار » ورميه ذوبها بالجهل والتعاسة وافتتانها بالآراء الحديثة
وادعاءها لها أرجحية الثبوت والوضوح . ونحن نرى العلماء
يتنازعون فيها ولا يزالون ينقضون اليوم ما بنوا أمس على حين
نراهم هم أنفسهم يزدادون كل يوم تمسكاً بتلك الأفكار التي يدعوها
حضرة الكاتب قديمة . ويجاهرون مفاخرين بتمسكهم بها
كنيوتون وأراجو وباستور وأمبير وغيرهم كثيرين ممن يحسبون
أئمة في العلوم .

وإننا لندهش من أن مراسل الأنسة مي يحرم نفسه الآن لذة
التمتع بمشاهدة ما تتجلى به الأفكار الحديثة من مظاهر الرقي
وتهذيب الطباع وتلطيف الهمجية القديمة باستعمال الغازات
السامة وطرق القرصنة وأساليب صب البلاء على الأبرياء
والضعفاء فضلاً عما أفادت الألمان - وهم أخص مروجيها

ودعائها - من القدرة التي سمت بهم إلى قتل الأسرى والفتك بالأحداث والشيوخ والنساء .

فأحر الكاتب الغيور أن يذهب إلى ميسادين القتال هناك ويساعد الألمان في هدم معاهد تلك الأفكار القديمة ومعاقلة تلك المعتقدات الدينية التي أثقلها صدى الأجيال كريس وشقيقاتها . ولا يخفى أن المجال هناك رحب لغيرته فهذه « الأفكار القديمة » تتجلى الآن بأبهى مظاهرها في فرنسا في الحنادق والمعابد والمعاهد والمعسكرات حيث تقام الشعائر الدينية ويجهز الجميع بالصلاة . ولم يفت أصدقاء الكاتب في مصر الوقوف على شيء من مظاهر هذه الأفكار في وفاة ومشهد الجندي لروى ومن كلام الكولونل موكور الذي أبتنه بالطف كلام وسكب على جراح ذويه بلسم التعزية بذكر وفاته المسيحية متزوداً الأسرار المقدسة .

ويحسن في هذا الصدد أن نذكر ما نقل عن العلامة الافرنسي الشهير اميل اماجات الذي خسرت العلوم ونعت فرنسا الى العالم حديثاً وهو أحد أعضاء الجمعية العلمية في باريس والجمعية الملكية في لندن له المباحث الخطيرة والاكتشافات النافعة في كثير من فروع العلوم الطبيعية . فهذا الفقيد لما اشتدت عليه وطأة المرض استدعى الكاهن وقال له : « طلبتك

لتؤهلني للحضور أمام الله . أموت مؤمناً بكل ما تعتقد به
الكنيسة الكاثوليكية ... قد كان لي ديني راية ، يعلم الله اني ما
دنستها بما يشين لأجل مجد أو مقام .

أفلا يخجل حضرة الكاتب من امتهانه الأفكار القديمة
والعقائد الدينية ورميه بالجهل الناس الذين يقبلونها بلا بحث ولا
جدال . وهو يرى أمثال اميل اماجات متمسكين بها منتمين
بكل افتخار إلى الكنيسة التي تعلمها ؟
« ب . ر »

الوحدة ب . د

أشكر لخدمة معترض جريدة « الأخبار » اهتمامه بما نقلتُ
عن الكاتب الأمريكي . وما كنت لأزعجه بجوابي هذا لولا اني
شعرت في رده بشيء من سوء التفاهم بيننا . فلما أن تكون
« الاخبار » نسيت سهواً نقل الجملة كما هي فاستأذنها بالإشارة إلى
ذلك . وإما أن أكون أسأت التعريب - وهذا هو الأصح -
فوجب عليّ الإصلاح قدر المستطاع .

لست بمناقشة ، لأنني يوم عرّبتُ رسالة الكاتب الاجني لم
أكن ناشرة إلا رأيي دون رأيي . ولا أنا بمعارضة على قول
خدمة ب . ر . ان الكاتب أخطأ إذ خاض في الموضوع
« بكلام خيالي شعري » . أولاً لأن الرجل ليس شاعراً . ثانياً
لأنني أضطرّ أن أذكر خدمة ب . ر . ان التوراة
والإنجيل الشريفين مكتوبان بأسلوب شعري خيالي . ففي
التوراة يفيض الشعر فيضاً جميلاً من مزامير داود إلى نشيد

سليمان ، إلى سفر أيوب ، إلى نوح ارميا . وأما الإنجيل فملوء بالرموز والإشارات كما انه ملوء بالتعاليم العالية المؤدية إلى الكمال الاسمى . والسيد المسيح نفسه قال انه يتكلم بالرموز ويضرب الامثال .

على اني أستاذن حضرته بإلفاته إلى قول الكاتب الاجني ان « أمثاله (الدكتور شميل) يهدمون ما في الاديان والجمعيات من الغلو والإفراط » . هذا صريح لا يحتمل تدليلاً . فهل « الغلو والإفراط » يعنيان الإيمان بالله أزيي سرمدى ؟ كلا . ان هذه الفكرة العظيمة أم العقائد الدينية وغير الدينية جميعاً . انها ملازمة لفكرة الخليقة ملازمة لا تقبل انفصلاً . وسواء دعيت تلك العناية المثلى « هو وهي » كما يدعوها الإمبراطور القديس ، أم الله ، أم الطبيعة ، فهي هي ، وما كان البشر إلا معددين لها الاسماء والالقباب . « وأصدقاء » الكاتب الاجني يؤكدون لحضرة ب . ر . أن الرجل مؤمن بالله . فلماذا لا يكون « الغلو والإفراط » في التجاء امرأة ضاع منها منديلها مثلاً ، إلى القديس أنطونيوس تستحلفه بأمه وأبيه أن ينزع منديلها من أيدي الشياطين ويضعه في جيبها مباشرة ، وذلك بمقابل بخور بكذا قروش تهديه اليه في الغد . ولماذا لا يكون « الغلو والإفراط » في التجاء السيدات المسلمات إلى « الزار » والمشعوذين . ولماذا لا يكون « الغلو والإفراط » في حرق المرأة الحية قرب زوجها الميت عند الهنود ؟

أظن أن مثل هذه الاعتقادات الصيبانية والعادات الفظيعة تستحق نعت « الغلو والإفراط » .

بعد خطة الدفاع يتخذ حضرة ب. ر. خطة الهجوم فينتقل دفعة واحدة من الدين إلى الحرب . واعترف بأن هذا الهجوم الفجائي يدهشني بعض الدهشة ، وهو يعلم أن لا دخل للدين في حروبنا اليوم . نعم انهم يفتتحون الحرب باسم الله ، وينادونه إلى الاخذ بيدهم ، ويلقونه - وهو الرفيع عن كل ثلثى - قائلين : أنت إلهنا وأنت معنا. حتى إذا ما أفنوا حياة مُسمح بأن تكون ، وهدموا دياراً مُسمح بأن تشاد ، ومزقوا أجساداً وسحقوا قلوباً عادوا إلى كنائسهم ومعابدهم ، وجشوا أمام الإله العظيم إله الرحمة والحب والإشفاق ، وأنشدوا : « إياك اللهم نعظم » ! ان الأديان لتبرأ من فظائع الحروب ولا تجوز إلا الدفاع عن الوطن إذا هاجمه الأعداء . ولكن جميع النفوس لا تفهم الأديان كما هي ، بل كل منا يفهم دينه حسب درجة عقله وميول قلبه . ولا يقتصر البشر على الإيمان بالمعتقدات الدينية الأساسية بل يتعصبون لاعتقادات أخرى إضافية لم تكن إلا اختراع التعصب والجهل . وكثيراً ما يستفيد رؤساء الشعب والحكومات من هذا التعصب فيشبهون الحروب ، ويقودون الشعب المسكين إلى حيث لا أثر للدين ، ولا منفعة لغير السياسة .

فان استعمل الالمان وسواهم العلم وبذلوا كل مال لديهم من معرفة وحيلة في سبيل قهر أعدائهم ، فهل هذا يعيب العلم ؟ الطب عائد بالخير على الإنسانية ، فهل إذا دس طبيب لعليله السم لغرض من الاغراض فسدت منفعة الطب ووجب علينا أن نحسبه من حيث طبيعته شراً ؟ هذا العلم الذي هو آلة شر وفناء في يد ألمانيا وغيرها الآن كان وما زال آلة خير وحياة في يد ألوف من الافراد وعشرات من الشعوب . لذلك لا يتحتم أن يكون المؤمن جاهلاً . فالدين شيء والعلم شيء آخر . الدين مذهب شخصيتنا المعنوية والعلم ضرورة من ضروريات حياتنا . هذا للزمان وذاك للأبدية ، وليس لأحدهما أن يلاشي الآخر .

يختم حضرة ب . ر . مقاله كمن يتساءل ألا ينجل الكاتب لأنه لا يعتقد اعتقاد اميل اماجات ؟ لست أدري ، يا سيدي ، لأنني لم أسأله بعد . ولكفي أعتقد أن الدين علاقة سرية بين الخالق والمخلوق ، أعتقد أن كل امرئ يلاقى نتيجة أفعاله ولا يتحملها عنه أحد ، أعتقد أن الله منح البشر حريتهم - اسمح لي أن أذكر الحرية بلهجة غير لاهوتية - فعلى كل أن يرى وجهة الخير أمامه ، ويعبد ربه ويخدمه كيفما شاء . ما دام الله ساعداً بذلك ، لماذا لا يسمح به الناس ؟

أما الدكتور شمیل الذي تفضلت وهنأته « بهذه الخطوى »

فلست أعرف كيف تقبلها وإذا كان إعجاب رجل أجنبي أو
شرقي يهمة كثيراً. ولكنني أعرف أن اسمه من الاسماء التي سيفتخر
بها الشرقيون دوماً سواء أكانوا مؤمنين أو ملحدين . لم يكتب
ضد الدين أحدٌ أكثر من فولتر ورغم ذلك فمقامه الأدبي محفوظ
حتى لدى المتديتئين ، ويفاخر أبناء فرنسا بأن ينعتوا لفتحهم
باسمه فيقولون عنها « لغة فولتر » .
(١٩١٥)

سلام الله يا هطر عليك

قلبتُ الشطرَ وغيّرتُ منهُ المعنى لأنصفك ، يا مطر الجوّ ،
وأثار لك من الشاعر العربيّ . وسواء أعنّاك في شعره أم عنى
رسولاً اسمه « مطر » ، أم جعل الكلمة الواحدة في الشطرين
تعنيك مرةً وتعني الرسول أخرى – فأنتَ ، يا مطر الغيوم ،
مظلوم . وما أظلم الشعراء يوم لا يرحمون !

وما ذنبكَ أنتَ المنفعل وإن خلناك فاعلاً – ما ذنبكَ إذا
امتصّتك الشمس من البحر بخاراً ، وعقدتك في الجوّ سحاباً ،
ثم تفجّرت السحب وتدفقت سيولاً تروي السنابل والأشجار ،
وقدبل الانبئة والازهار حيناً في انتظار ربيع يحبوها من جديد
بنضرة الشباب وسحر الحياة ؟

وما ذنبكَ إذا أبطأ الرسول مطر في رسالته – فلعلّ له
في طريقه ليلى تحدّثه ؟ وما ذنبك أن لم يُعد مطر الرسول إلى

الشاعر يجوابٍ مرضيٍّ من ليلاه ؟ وهب انك هطلتَ قبيل
اجتماعها المنتظر فكنتَ بينها حائلاً - فما ذنبك ؟

سخط الشاعر وسبكٌ بالأوزان والأسجاع على نحو ما يكون
سباب الشعراء ؛ ولكنه إذا كان شاعراً صميماً فما لبث أن هدأ
سخطه ، وفكر في شعوبٍ جائعةٍ تنتظر منك ارواء غليلها
وضمانة قوتها .

ولكن لعلَّ الشاعر كان مصرياً فما استطاع أن يرى فيك
ما تراه شعوبٌ ليس في ديارها نيل كريم يفيض بدموع الآلهة
فيغنيها عن منافعك وأضرارك ؟

يحق لبعض المصريين ، من جانبٍ آخر ، ان يقرأوا الشاعر
القديم في قوله « وليس عليك يا مطر السلام » ، فيحق لهم ذلك
إذا ما رأوا الأحياء غير الأوربية في هذه المدينة . والأحياء
الأوربية وغير الأوربية من الامور التي تسوسها مصلحة التنظيم .
ومصلحة التنظيم - كما تعلم أو كما لا تعلم ، ايها المطر - دائرة من
دوائر الحكومة . فإذا ذكرناها بغير الثناء والتعظيم والتبجيل كان
نصيبنا منها نصيبك من شاعر ليلي - على الأقل !

(١٩١٦)

بين الأدب والصحافة

تساءل مستر برسي هوايت في إحدى محاضراته الأخيرة بالجامعة المصرية : هل الادب والصحافة واحد ؟ وما لبث أن أجاب نفسه قائلاً : « كلا ليسا واحداً . قد تلامس الصحافة الراقية ، في بعض موضوعاتها ، المعاني الادبية العالية فتوسم بوسمها وتؤثر تأثيرها . لكن الصحافة ، بوجه الإجمال ، تختلف عن الادب من حيث الغرض والمرمى والتأثير . »

بينما كان الاستاذ يبسط رأيه كنت أضاحك نفسي قائلة : قد يكون هذا رأيكم ، أيها الغربيون ، لكن الأمر عندنا على غير ما تذكرون . عندنا إذا كتب المرء مقالات قليلة في الزراعة مثلاً ، حاز دفعة واحدة جميع الألقاب الكتابية المدونة في القاموس فأصبح كاتباً مجيداً ، أديباً أريباً ، مفكراً مبتكراً ، شاعراً فذاً ، خطيباً مفوهاً ، سياسياً منكمهاً ، عالماً علاماً وبحراً فهامة . وإذا أردت معرفة ألقابه الاخرى فعليك « بنجعة

الرائد « ليازجي صفحة ٢ الباب السادس من الجزء الثاني .

الادب فن التعبير عن العواطف والميول والتأثيرات نثراً ونظماً . فالشعر فرع من الادب . والشرط الجوهرى للكاتب الادبي هو أن يكون ذا إحساس قوي يتأثر بجميع الحوادث ، فإذا نقص هذا الشرط تلاشى الكاتب الادبي .

وكيف يؤثر من لا يكون متأثراً : ألا انّ الذكاء يتعب ، والعلم يعذب ، والحرية الفكرية تقلق النفس . ولئن عرفت كيف تضرب على أبواب القلوب سمعت الجواب دوماً . تجاوبك الدموع . دموع التعزية في الغالب ، ودموع الألم أبداً .

أما الصحافة ففي نشر الأخبار السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية . فهي اذن مختلفة عن الادب كل الاختلاف . إذا احتاج الاديب الى شعور قوي فلا حاجة للصحافي الى ذلك ، وما عليه سوى نقل الانباء التلغرافية ونشر الحوادث المحلية . فإذا فعل أجاد وكان عند ربه وعند الناس مرضياً .

على أن خدمات الصحافة جليلات ولا غنى لأمة متمدنة عنها . ولصحافتنا العربية مزية خاصة في هذا العصر بكونها لسان حال الأدباء والعلماء والمفكرين والمشرعين . كتب العلم والادب قليلة عندنا لأن علماءنا وأدباءنا قليلون . وقد ندر بينهم من استطاع تأليف كتاب والإجادة التي هي شرط الإفادة . أما معظم الكتب المتداولة بين أيدينا فنقول عن اللغات الأجنبية

وإذا كان لنا منها فائدة فهي ، على كل حال ، لم تكتب لنا ولم تلاحظ أحوالنا وورائتنا وأخلاقنا في تأليفها . ولا يستطيع الإتيان بذلك إلا كاتب منا . لأن الكاتب الأجنبي لا يفهم طبيعتنا الشرقية تماماً مما عاش بيننا وهو ذو طبيعة متباينة ، فلا بد من المقابلة بينه وبيننا في كل أمر . وهو لا ينظر إلينا إلا بعين الغرب للشرق أي بعين الاستفهام الدائم ، بعين الاستغراب والاستحسان اللذين يتجاذبان أمام كل حركة من حركاتنا .

ويحيد كتابنا في بعض المقالات المنشورة في الصحف السيارة . يجيدون في تشخيص الداء وفي الإرشاد إلى الدواء . فزى أحياناً بين التلغرافات والحوادث المحلية سطوراً أدبية ملؤها الشعور الصادق والاختبار والمعرفة . وهذا فضل يضيفه الصحفيون إلى أفضالهم الكثيرة . فإن لم يكن الشعور ضرورياً للقيام بواجباتهم ، فهم يعرفون كيف يستعملونه ومق يظهرونه .

أصبح الصحفيون زمرة قوية تخشاهم الأرض ومن عليها . فهم ينتقدون القوانين ، ويحاجون الحكومات ، ويسنون أوامرهم للبشر ، ويبسطون آراءهم لأولي الحل والعقد حتى إذا شعروا بأن الفكرة التي يبدونها بعيدة عن ذهن القارئ عمدوا إلى اسماء التحجب فدعوه تارة « القارئ اللبيب » وطوراً « القارئ الكريم » وحيناً « القارئ العزيز » إلى غير ذلك من النعوت الطيبة التي ترضي الجميع . فيقتنع القارئ بأنه لبيب

وكريم وعزيز ، فعلى كل لبيب كريم عزيز أن يفكر ان ما جاء
في المقال هو الحقيقة بعينها .

أكتب هذا وأنا أعرض* على سبابتي ضاحكة . لا تفضبوا
يا سادتي الصحفيون . كلنا معترف بالخير المتدفق من أقلامكم على
من يقرأ وعلى من لا يقرأ جميعاً؟ وأشهد باحترام أن وجودكم بيننا
عنوان ارتقائنا ، أليس كذلك ؟ غير اني أريد أن أنصفكم
فأقول : لأن كان كل منكم القدرة المحسنة ، فأن هناك شخصاً
أقدر منكم لو اتحدتم جميعاً . لا تظنون أن الله هو من أعني ، بل
هو بطل قلم الرقابة ... هو الرقيب . (١٩١٦)

موعظة شهر الورد

دنا المساء فهزّني طربُ الربيع ورغبتُ في الخروج
والتجوال لأشارك الطبيعة في أفراحها . كآني حسبتُ جدران
البيت تقطع الصلة بيني وبينها ، وتشعّرنِي بأني محرومة من
مشاركة الموجودات الهائقات بأريج أيار بين الفصون وبزينة
الأرض العروس .

خرجتُ وليس لي وجهة معينة أطلبُ بداهةً أحياءَ قلما
اخترقْتُها . فسرتُ في شارع قصير على مقربة من شارعنا كأن
نفسي المتيقظة لبت داعي الأخضرين المحيطين بهاتيك المنازل :
أخضر يبسطُ على أرض الحديقة طنفسة مخملية ، وأخضر يتعالى
ظليلاً فيعكس طيف افئانه على وجه الجدران الشاهقات .

سرتُ متمهلاً انتقل من رصيف الى رصيف ، والشمس
آخذة في التحدّر وقد انكسرت حدّتها ، ولطف نورها ،
حتى بدت الأشعةُ حزينة بما مازجها من معاني الفراق . وما

كان اندر المركبات والسيارات في ذلك المنعرج ، والمارءون
يتبادلون نظرة كأنهم لقلَّتْهم يقولون «أرأيت ؟ لا أحد
إلاّنا ، !

أتيت على آخر الشارع فنفدتُ إلى شارع رحبٍ طويل هو
شارع ماريت باشا المؤدي إلى دار الآثار المصرية . فخطوتُ
مترددة بين العودة من حيث أتيتُ ومتابعة المسير إلى الامام .
وإذا بناقوس يدقُّ على مقربة مني ولرنيته ازاء الغروب دويٌّ
متوسل حنّان . فالتفتُ الى جهته فوجدتني أمام كنيسة
صغيرة رأيتها مراراً ولم أدخلها مرة .

وقفت أتأمل واجهة الكنيسة وأدير النظر في الحديقة التي
تتقدمها وكانت تحتازها بعض السيدات . فلما توارين وراء باب
الكنيسة تبادر إليّ انه يحتفل بصلاة الشهر المريمي في هذه الساعة
من كل يوم على طول الشهر ، لأن أيار (مايو) مكرّس للعذراء .
ولم يعد ينقصني إلاّ أن أرى فتاة تسير بخطوات عصفور في
ثوبٍ أزرق كزرقة الأحلام ، وتتوارى هي أيضاً وراء باب
الكنيسة ، لأجد مني شوقاً إلى مشهد الهياكل وتوقاً الى رائحة
البخور . اضحكوا ما شئتم ، انتم الزاعمون ان الثوب المليح
دعائي ، وأن زيه البسيط تخريبه الدقيق كان له مع المرأة
مني أحاديث .

أما الكنيسة فكانت مملوءة بالمصلين ولم يخلُ في مقاعدها

إلا مكاتب واخذ جثوتُ عندهُ قرب الكاهن الراكع أمام
المذبح يتلو المسبحة باللاتينية فيردُّ عليه الجمهور بلهجة الخاشع
المتهيب .

لا أعرف شيئاً أجمل وأسمى من الصلاة في أي دين من
الأديان ، لأنها ترفع النفس إلى أعلى درجات الارتقاء ومحاولة
الدنو من روح الحياة الكبرى . هي مناجاة العابد للمعبود ، هي
شكر المخلوق للخالق واستعطافه لاستئصال عطايه . وما أعذب
هذا الاعتقاد ان في السماء ، هناك وراء جمع القوى والمعائب
الكونية ، إلهاً قديراً لا يُقضى دونه أمر ، لديه النعم يفيضها على
الحاجة البشرية ، وعزة يتلاشى حياها ضعف الإنسان ، وجوده
يعمُّ البرايا فتموج وتنوع وتنفض بالحياة والقوة والتحول .

إلا أني لا أستحسن الصلاة الآلية المستطردة على وتيرة
واحدة دون أن يشترك فيها العقل والقلب ، - الصلاة المتعاقبة
ألفاظها بين الشفاء والأصابع تعدُّ منها أرقاماً معينة - لأنها
أبعث الى التنويم المغناطيسي منها الى الإيقاظ الروحي . قد
يكون هذا التأثير من تقفن الشيطان في التجربة والخداع . قاتله
الله ! لقد وسوس في صدري حتى شئت أفكارى وحملني على
احصاء الحاضرين . وكانت النتيجة اني جزمت بأن النساء أسبق
إلى دخول السماء نسبة إلى عددتهن في الكنيسة ، إذ لم يكن بين
مائتي امرأة إلا رجلان وخمسة أرباع . أما الرجلان فرجلان ،
وأما الخمسة الأرباع فصِبيان صغار خمسة جاءوا مع امهاتهم .

وكم كنت ظالمة في الإحصاء والحكم ! ذلك اني عند الخروج وجدت جمهور الرجال في مدخل الكنيسة، يقفون هناك مراعاة للسيدات وتكرماً منهن لمن بالمقاعد .

وظل الحتناس الوسواس يحرجني فحسنت لي تفحص المعبد فتفحصت جدرانها وما قام عليها من صور وتماثيل ، وهندسته وما ميزها من نقوش ورموز ، وهياكلها وما تناسق عليها من صلبان وطاقات أزهار - تلك الأزهار ذات الانحناء السري ، تتخللها شموع كأن لهيبها تذكارات لاذعة في شفق الغيبوبة والنسيان .

لكل شيء في العالم نهاية . صمتت الأصوات فمشى الكاهن إلى الدرابزون أمام المذبح الكبير وبدأ موعظته الإيطالية . وكان يقول أشياء عادية بصوت المثبت ، وإشارته مرتبكة كإشارات التلاميذ في حفلة توزيع الجوائز . ولكن لم يلبث أن ارتفع صوته وركزت هيئته ، واتسعت اشارته ، ولعت عيناه وهو يقول :

الى مريم ربة هذا الشهر الجميل يجب أن تلتجئ النساء جميعاً . فالأمهات يتعلمن منها التجمل بالصفات التي أحاطت بها ابنها يسوع : وهي الحنان والحصافة والمحبة الصادقة التي لازهو فيها ولا تهور . لقد كانت ، وما زالت ، وستبقى أبداً أسمى مثال للأمومة القدسية ، تسير الأمهات وراءها مستوحيات أساليب التربية والتهديب .

اليها يلتجئ اليتامى الذين لا أم لهم فيجدون في حضنها
الراحة والعطف والمساعدة . اليها تلتجئ العذارى لأنها أهي
مظهر للطهر والحشمة والوداعة .

امممن يا اخواني يا نساء القاهرة ! اليكن أوجه هذه
الكلمات فاقبلنها لأنها خلاصة اعتقادي . تعلمن الحشمة من
مريم انتن بنات اليوم الناسيات . ما وقار المرأة واحترام الناس
لها إلا نتيجة حشمتها وعفتها . قد تكن عفيفات طاهرات في
قلوبكن ولكن كيف يصدقكن الراي ويحسن الظن بكن
وانتن تسرن في الشوارع بهذه الأزياء الحديثة التي تعري منكن
العنق والنحر والذراعين ، هذه الأزياء الشريرة بأقشمتها الشفافة ،
الشريرة بقصرها وضيقها ، التي تعدم لا بستها كل هبة وجلال ؟

أللحُب تزينن ؟ أالحب تسيهن في هذا التهتك ؟ ألا فاعلمن
إذا ان حب الرجل لا يكتسب بالتهتك بل بالتكم . الرجل
محارب من طبعه يهوى الفتوحات ويستमित في الإخضاع بينا
هو يعرض عن كل ما لا يكلفه ألماً وكدّاً .

ام انتن تزينن للجمال ؟ ولكن هل الجمال في الزينة والأناقة
وملاحة الوجه وتناسب الأعضاء ؟ كلا ! كم من امرأة تحسب آية
تناسب وملاحة وهي مع ذلك غير جميلة ، إذا سرت امرؤ بمشاهدتها
مرة أو مرات فهو لا يتمنى مجالستها ويميل كلامها وسخافتها
بعد أن يعرفها قليلا ، إذ يرى ان أحسن ما فيها هو هذا الشيء

الخارجي الذي لا يكفي لامتلاك القلوب واكتساب الأرواح .
 ألا فاعلمن أن النساء اللاتي كن ذوات أثر في أعظم الرجال
 وذوات سلطة وشوكة حزن جالاً أعظم من هذا الجمال
 الحسيس وأبقى . لقد كان لمن جمال النفس الذي تزيده الأيام
 رونقاً بينما هي تحك القشرة هنا وهناك وتوسعها كل ساعة
 ذبولاً وإتلافاً . كان لمن جمال العقل وجمال القلب ، وجمال
 حسن التصرف ، وجمال اللطف الصحيح ، وجمال المحبة
 الطاهرة العميقة المستخفة بالمظاهر التي لا يفرها جمال الشباب
 وجمال الأناقة وجمال الازياء .

أتعلمن ما هو الشباب والجمال ؟ هما حديقة تملأها الازهار
 النضرة والعطور المنعشة ، أمامها يقف المارةون معجبين . وما
 هو إلا يوم وليلة فتمر العاصفة صارعة أشجارها ، مبددة
 أزهارها ، مبيدة عطورها ، وتنادرها خالية إلا من أكوام
 التراب والأغصان المكسرة . هذا ما تسمونه جمال الشباب أي
 جمال القشور . أما الجمال الآخر فهو جمال الجوهر . الآلام
 تطهره ، والمصائب تجلوه ، والمواطف تفعمه قوة ونبل . هو
 الجمال الذي يبقى نامياً مدى الحياة . هو مسعد العائلة ، وهو
 مساعد الزوج ، هو مهذب الأطفال ، هو السلام والخير والبركة .
 ولتحفظه المرأة ... اسمعن أيتها السيدات ... لتحفظ المرأة
 ذلك الجمال . عليها أن تكون وردة تحيط بها الاشواك ...

انتهت الوعظة . فعزف الارغن الشجي وابند الزياح

فاشترك الجميع في الترتيل وتصاعدت الشعائر نحو الله ملحنة
أنغاماً ومحرقة أمام هيكله بخوراً .

وعند خروجي من الكنيسة كنت الظلام يغمر المدينة
ومضيئو المصابيح يحرون في الشارع حاملين المشاعل . فوقف
أحدهم يتفرج على السيدات وهو يفتّر عن أسنانه البيضاء ،
ويثنى على كل مارّة الثناء المعتاد قائلاً بلمجته المصرية النغشة
« انت يا واد يا حلو ! انت يا ليلي زي الباشا ! انت يا واد
يا حلالة » .

هذه هي موعظة شهر الورود : على المرأة أن تكون وردة
تحيط بها الأشواك . وما « أشواك » الوردة النسائية غير التكم
والحشمة والطهارة كما قال ذلك القس . فإن عجبتم اليوم لهذا
الكلم الطويل الذي يتعثر قلبي بأذياله فاعلموا أن سببه موعظة
شهر الورود . وإن أعرضت عن ذلك الثوب الشفاف الساحر
واستبدلته بهذا الشبيه بثوب أبينا الراحل لكثافته فما سببه
ألا موعظة شهر الورود . وإن غادرتكم الآن ، فما ذلك إلا لأني
أريد أسمع موعظة شهر الورود مرة أخرى : - على المرأة أن
تكون وردة تحيط بها الأشواك .

الحركة بركة

شكا الناس هذا العام وما فيه من كثرة الجلبة في ميادين القتال وقلة الحركة في ميادين الاعمال . قال بعضهم أن مصرفارغة في هذه الشهور فراغ جيب البخيل . وقال آخرون ان جيب البخيل لا تفرغ ان كانت يده لا تمتلئ ؛ فسمى بالصلح جماعة أرضوا الفريقين بقولهم « بل قد تكون جيب البخيل ويده ملأين ولكن عينه تبقى فارغة » .

هؤلاء الناس سفسطائيون لا يعرفون شيئاً . أيها القارئ ، لا بد ان اسميك اليوم لبيباً ، إذ لدي من الأقوال ما أود أن تقبله بلا اعتراض ، وأن تضحك له لا منه . لهذا لا بد أن تكون لبيباً . فإذا كان دولاب الأشغال (كما يقول الاختصاصيون) قد أكله الصدأ ، وما كثر في هذه الأيام من العمال إلا العاطلون فلا تظن الحالة موجبة لليأس . صحيح أن البورصة تحزن السامرة بعض الحزن لأنها غنيمة تأمل الطلوع ،

لكنني أعترفُ لك سرّاً بأنها مصيبة . فليست الأيام أيام طلوع
وكلّ مرتفع مُعرّضٍ للقذوفات . انما الزمان زمان خنادق .
حفرت البورصة لنفسها خندقاً ملائماً للأحوال ونزلت فيه
صامتة .

غير اني أكرر أن الحالة لا توجب اليأس لأن اللصوص قوم
أذكىاء ، اذا هدأت الحركات غلت حركاتهم وتوعدت . يتهادون
بين المنازل والدكاكين تهادي ربات الجمال وذوات الحجال .
يسرون من باب الى باب ، ومن مستودعات الجواهر الى
مستودعات الأموال ، بخفة وهدوءٍ لئلاّ يقلقوا راحة النائمين .
الأدب حسن في كل حين ، واللصوص جماعة « جنتلن » .

على اني أعجب للمسروقين لماذا يفضيهم انهم لا ينتهبون لمور
الساعة الرهيبة ؛ أهذا جزاء المروء ، يا سادتي ؟ أما البوليس
فلا اعتراض على وقفته : يقفُ في النهار بكرامةٍ ، وعلى مقربةٍ
منه تتخاصم الناس وتتصادم المركبات ، وهو والله الحمد واقفٌ
بالسلامة ، منصوبٌ قوامه إلاّ من طرفيه كالآلف المتقنة الصنع -
وهذا يزيدهُ شَبهاً باللهِ الحدود القديم عند الرومان .

استغفر الله ! لست أعني انه يظلّ واقفاً كالتمثال ! كلاّ ثم
كلاّ ! انه يمشي أحياناً ، ويرفع يده مسلّماً على بعض المارين في
المركبات ، وطرف حديث مع الاخوان لا يزعجه بل بالعكس .
وهو مع ذلك متممٌ أمور وظيفته . فإذا رأى قبيل المساء
حوزياً لم ينور شمعيّ مركبته صاح الهُ الحدود الجديد باسطاً

ذراعيه الى الامام وقال « نور يا أسطى » ! . انه لبطل شجاع لا يحابي أحداً ، ولا يخشى هولاً إذا ما أمره الواجب ! علينا أن نعترف من جهة أخرى بأن الحوذي يطيع مرة في المئة ويعصى تسعاً وتسعين مرة ، مكتفياً بأن يجيب على أمر البوليس « حاضر يا سيدي » ! . يقول المثل « لاقني ولا تعشني » . وكذا يعمل الحوذي لأن ثقته في حلم البوليس لا حد لها . مهما كان المرء بوليساً فإنه يظل انساناً رحيماً .

هذه حالة البوليس في النهار ، أما عن الليل فلا تسلني ! قيل لي في قديم الزمان وسالف العصر والأوان أن بوليس الليل يدعى خفياً . وهو كذلك . إنه مازال بوليساً معتبراً ما دام قائماً مقام البوليس ولا أعرف عن هذا البطل الآخر سوى حادثة صغيرة جرت في شارعنا منذ أسبوعين تقريباً : دخل لص بيتاً فأفاق أهل البيت ، وانتبه الجيران ، وقبض هؤلاء وأولئك على اللص وشريكه ، ثم تساءلوا أين البوليس أو القائم مقامه . فبعد أن بحثوا عن رجل الساعة وجدوه نائماً كطفل بريء فأيقظوه ! ويل للقصة القلوب انهم لا يشفقون !

من ألدّ أخبار اليوم حوادث ثلاث : سرقتان لمبالغ ٥٠ جنياً و ١١٥ جنياً من بعض المخازن ، وسرقة حليّ وجواهر من منزل سيدة وطنية بقيمة خمسين ألفاً من الفرنكات .

بارك الله فيكم أيها اللصوص ! ان ضاعت أيامكم فإن لياليكم لا تضيع ! تذكرون قول الأمريكيان « الوقت من ذهب » ، وقول

السويسريين « السكوت من ذهب » وتستخدمون الوقت
والسكوت معاً فينقلب الذهبان بين أيديكم لآلء وجواهر !
بارك الله فيكم جميعاً ! أليس كذلك أيها القارئ اللبيب ؟
والبوليس ؟ لا توقظوه ! انه نائم بالسلامة كطفل بريء ...

(١٩١٦)

دنا عيد الميلاد ...

دنا عيد الميلاد وجاءت معه جميع الذكريات والتصورات
والمعاني الخاصة به . غداً يلقي الواعظون من على المنابر كلمات
الرفق والإحسان والغفران ، وينشد المنشدون « المجد لله في
العلی وعلى الأرض السلام » فيسمع الناس الأناشيد والمواظ ولا
يحاولون ادراك كنهها ، وإن أدركوا فلا يعتقدون بوجوب
تطبيقها على أعمالهم ؛ لأنها كجميع النصائح تقل قيمتها بالتكرار
ويستخف بها كلما تبرع بها المتبرعون .

المجد لله ليس في العلی الذي لا نعلم ما هو فحسب ، بل المجد
له في كل مكان وكل زمان . أما السلام فليس على الأرض في
أيماننا ، ولا ينتظر أن يحل عليها قبل أن يتغير نظام الكون
وهو التصارع والتقاتل الذي لا يفتر ولا يضعف .

منذ مئات الاعوام والدهور تتجاوب كلمات المحبة والمساواة
أما الأعمال فلا يظهر فيها غير تنازع البقاء وتنازع القوة ،

وتنازع الغلبة والظفر بين الافراد والجماعات في شؤون العمران والدين والطبيعة . ليس غير التنازع من سبب في أن تقيم الفنادق الكبرى شجرة عيد الميلاد ليدور حولها الراقصون الراغبون في نسيان ممومهم وتسريح غمومهم . وهو ، هو باعث نظرات السرور في عيني طفل يرقب لعيبات ودمى وخيل وأسلحة ومركبات عمرت بها نوافذ المحال التجارية . وهو منبته الذكرى في نفوسنا ومعيدنا الى أيام كنا نرى في هذه اللعيبات الكون بأسره . كما انه في الوقت ذاته العاطفة التي تحولنا عن هذه الأشياء الى ما هو خير منها . أو ليس هو ذلك التنازع في شكل مجاملة ، صارت بالاستمرار اخلاصاً اجتماعياً ، الذي يجعلني أقول : كل عام وأنتم ...

عام سديد

كلمة يتبادر لها الناس في هذه الأيام ولا يظنون بها إلا على
المتشع بأثواب الحداد . فإذا ما قابله جمدت البسمة على
شفاههم وصافحوه صامتين كأنهم يحاولون طلاء وجوههم
بلون معنوي قائم كلون أثوابه .

ما أكثرها عادات تقيدنا في جميع الأحوال فتجعلنا من
المهد الى اللحد عبيداً ! نتمرّد عليها ثم ننفذ أحكامها مرغمين .
ويصح لكل أن يطرح على نفسه هذا السؤال « أتكون هذه
الحياة » حياتي « حقيقة وأنا فيها خاضع لعادات واصطلاحات
أسخر بها في خلوتي ، ويمجّسها ذوقي ، وينبذها منطقي ، ثم أعود
فأتمشى على نصوصها أمام البشر ؟

يبتلي امرؤ بفقد عزيز فيعين له الاصطلاح من أثوابه اللون
والقماش والتفصيل والطول والعرض والأزرار فلا يتبرنط ،
ولا يتزيا ، ولا ينتعل ، ولا يتحرك ، ولا يبكي إلا بموجب مشيئة

بيئته المسجلة في لوائح الحداد الوهمية . كأنما هو قاصر عن إيجاد حداد خاص يظهر فيه - أو لا يظهر - حزنه الصادق المنبثق من أعماق فؤاده .

إذا خرج المحزون من بيته فلا زيارات ولا نزه ولا هو يلتقي بغير الحزاني أمثاله . عليه أن يتحاشى كل مكان لا تخيم عليه رهبة الموت ؛ المسابيد والمدافن كعبة غدواته وروحاته يتألمها وعلى وجهه علامات اليأس والمرارة .

وأما في داخل منزله فلا استقبالات رسمية ، ولا اجتماعات مرور ، ولا أحاديث إنناس . الأزهار تحتفي حوله وخضرة النبات تذبل على شرفته ، وآلات الطرب تفقد فجأة موهبة النطق الموسيقي ؛ حق البيانو أو الأرغن لا يجوز لمسه إلا للدرس الجدي أو لتوقيع ألحان مدرسية وكنسية - على شريطة أن يكون الموقع وحده لا يحضر مجلسه هذا أحد . أما القرطاس فيمسي مخططاً طويلاً وعرضاً بخطوط سوداء يحفل القلب لمراً .

كانت هذه الاصطلاحات بالأمس على غير ما هي اليوم ، وقد لا يبقى منها شيء بعد مرور أعوام . ولكن الناس يتبعونها الآن صاغرين لأن العادة أقوى الأقوياء وأظلم المستبدين .

إن المحزون أحق الناس بالتعزية والسلوى ؛ لسمعه يجب أن

تهمس الموسيقى بأعذب الالحان ، وعليه أن يكثّر من التّنزه
لا لينسى حزنه فالحزن مهذب لا مثيل له في نفس تحسن
استرشاده ، وإنما ليذكر أن في الحياة أموراً أخرى غير الحزن
والقنوط .

ألا ربّ قائل يقول ان الحزون من طبعه لا يميل إلى غير
الالوان القاتمة والمظاهر الكثيبة . إذا دعوهُ وشأنه ! دعوهُ
يلبس ما يشاء ويفعل ما يختار ! دعوا النفس تحرّك جناحيها
وتقول كلمتها ! فللنفس معرفة باللائق والمناسب تفوق بنود
اللائحة الاتفاقية حصافة وحكمة .

بل أرى أن أخبار الافراح التي يطنطن بها الناس
كالتواقيس ، ومظاهر الحداد التي ينشرونها كالاعلام ، إنما هي
بقايا همجية قديمة من نوع تلك العادة التي تقضي بحرق المرأة
الهندية حية قرب جثة زوجها . وإني لعلّ يقين من أنه سيحيى
يوم فيه يصير الناس أتم أدباً من أن يقلقوا الآفاق بطبول
مواكب الاعراس والجناسات ، وأسلم ذوقاً من أن يحدثوا
الارض وساكنيها انه جرى لأحدهم ما يجري لعباد الله أجمعين
من ولادة وزواج و وفاة .

وتمهيداً لذلك اليوم الآتي أحيي الآن كل متشجّح بالسواد ؛
أما السعداء فلهم من نعيمهم ما يغنيهم عن السلامة والتحيات .

أحيي الذين يبكون بعيونهم ، وأولئك الذين يبكون بقلوبهم :
أحيي كل حزين ، وكل منفرد ، وكل بائس ، وكل كئيب .
أحيي كلّا منهم متغنية له عاماً مقبلاً أقل حزناً وأوفر هناء من
العام المنصرم .

نعم ، للحزين وحده يجب أن يقال « عام سعيد » !

أجوبة الفتيات

نشرت احدى صحف اليوم تحت هذا العنوان النبذة التالية:
ألقت نشرة امتحانات التعليم الابتدائي الفرنساوية على الفتيات
المتقدمات للحصول على الشهادة هذا السؤال « ما هي غايتك من
الحياة » ؟ . وبعض الأجوبة جدير بالذكر . منها :

« أريد أن أكون من راهبات القديس فرنسيس لأمراض
المرضى طول حياتي » .

• « لقد قرأ رأيي على أن أكون مريضة » .

• « أود أن أكون ملكة على فرنسا » .

• « أشتي أن أصير أمًا » .

• « أود أن أكون راعية للغنم » .

• « أطمح في الحصول على ساعة » .

• « أريد أن أكون بطلة مثل جان دارك » .

- « أتمنى أن أسافر وأموت غرقاً » .
- « أودّ أن أبرع في أساليب الهزوء والتكثيف الخ . الخ » .



فسألت نفسي بعد قراءة هذه النبذة « وما هي أمنيتك الآن » ؟ وأغمضت عيني منتظرة الجواب . وما أغمضتها إلا وتلاشت الاصوات حولي ، ونسيت محيطي ، ورأيتني ساجدة فوق الازرق الواسع ، ورائحة المראה البحرية وطعمها يخترقان كياني بينا الاهوية والنسائم يتناقضني . يا لهذا البحر الجميل كم من أرض محبوبة يحول دونها ، وكم من وجه عزيز يحجب عن المشوق معناه ! ... وما لبثت أن وجدتني مستلقية على الشاطئ البعيد ...

أتعرفون تلك البقعة الهادئة المنبسطة على شفة البحر تحت ذياك المكان المدعو « بوطلم نهر الكلب » ؟ أما زالت هناك كما كانت يخاصمها البحر ويصالحها ليل نهار ؟ هناك أودّ أن أنام ، شأني وأنا في الثانية عشرة من سنواتي البشرية . هناك الرمال ذهبية نظيفة لا تقتأ الامواج تغسلها وتظلّ الاشعة تنشفها . هناك صخور وشقوق أود أن أستريح في فينها سعيدة بالاختلاء والكتابة ، سعيدة بفرز يدي في الرمل الناعم ، مُعرّضة عن كل شيء ، ناسية كل شيء ، مكثفية بمناجاة الاصداف والحصى والذرات حولي وبإلقاء هذا السؤال على الكون الصامت « لماذا

أوجدتني ، أيها الكون ، وما تريد مني ؟



أويقات سجلت في كتاب الحياة ، أتمنى رجوعها لحظة
ويأسف لانقضائها قلبي ، ولكن فكري ليس ليشتها لأنها في
عالم نشوءٍ وارتقاء . ولئن اكتفى جزء من النفس مرة فهناك
جزء آخر يبقى متفلتاً من اظلال الماضي ، تائقاً إلى المستقبل
المجهول ، لا يعرف لذة الارتواء وسعادة الاكتفاء . . .

وصف غرفة في مكتبة

أستخرج هذه الصفحة من فصول لم تنشر بعد كتبها تحت عنوان « مذكرات الجامعة المصرية » لسنة ١٩١٦ . والغرفة التي وصفتها تابعة لمكتبة الجامعة وهي اليوم مركز سرارية المكتبة . أما يوم كتبت فيها فكانت خالية يجتمع فيها الطالبات إذا جئن قبل ابتداء الدرس الذي يقصدن حضوره . ومنهنّ الفرنسيات والإنجليزيات والروسيات واليونانيات والإيطاليات والبلجيكيات والسوريات . ولم تخل تلك الاجتماعات إلا من الفتاة المصرية وهي الحقيقة بحضور الدروس أكثر من غيرها لأن الجامعة جامعتها أكثر منها جامعة الأجانب .

كما نجتمع هناك كؤتمر دولي التأم لعقد الهدنة وتقرير شروط الصلح ، أو كؤتمر نسائي غرضه المطالبة بحقوقه والمجاهرة بمطالبه . ولكن الاحاديث الدائرة بيننا لم تكن لتدل على ذلك بل كانت مقتصرة على أخبار « الكونسرات » والسيناتوغرافات

والازياء وأشكال البرانيط الحديثة • ويتخلل هذه الثروة النسائية المحضة ضحك « يدبٌ ديبه » في كل موضوع تجاذبت أطرافه فتاتان ، فكيف به إذا صار ضجة فتيات كثيرات ؟

من عجائب الحديث النسائي أن السيدات إما يصغين جميعاً ولا تتكلم منهن واحدة ، وهذا نادر ، وإما يتكلمن جميعاً في آن واحد ولا تصغي منهن واحدة • وكانت الحال الثانية حالنا في اجتماعاتنا نزلٌ عليها حتى يعرض لنا ذكر موضوع الدرس ، فيهدأ ضجيجنا بفتة ونصني جميعاً إلى المتكلمة فينا ولا نحجم عن بث الآراء والمناقشة أحياناً • ونبقى « عاقلات » حتى يمر في الحديث خيال نكتة صغيرة فنعود إلى الثروة والضحك المتقطع المتواصل •

اجتماعات لطيفة كاجتماعات الفتيات في كل زمان ومكان ولكننا لم نكن لنهتم « بسر » الفرفة التي تجمعنا جدرانها ؛ ولم ألتبه لذلك « السر » إلا يوم وجدتني هناك وحدي ناظرة إلى ما نُشر على الجدران من رسوم أعظم الكتاب والمفكرين •



يقال ان في العالم نحو ثلثمائة جامعة • ولئن كانت الجامعة المصرية أحدث هذه الجامعات سناً وأقلهن « فائدة مادية » (لأنه

ليس لألقاها حروف شتى يحورها الطلبة وراء أسمائهم) ، فهي مع ذلك آخذة مكانها بينهم . ولها ميزة خاصة بكونها جامعة أهلية :-

على أنها ليست الجامعة الاولى في الشرق الادنى .

ان الازهر الشريف أقدم جامعات الشرق والغرب لأنه تأسس في القرن العاشر في حين أن أقدم جامعات أوروبا - وهما جامعتا بولونيا وباريس - لم توجد قبل القرن الثاني عشر .

يحلل الازهر وقار القِدَم . غير ان بابه مقفلٌ في وجه غير المسلمين وتعاليمه دينية لغوية في الغالب . فهو في نظر كثيرين حلم عميق للره أن يذكره ويحدث عنه ، ولكن لمسه ليس بالأمر اليسور .

اما الجامعة المصرية ففتوحة للجميع ولا تقلل من فضلها حدافة سنها . إنَّ كلَّ صغير محبوب لأنه يطلبُ العطف . كل صغير مستودع آمال كبيرات لأن له قابلية النمو والتكاثر .

قال الفرد ده موسىه (وهو الشاعر الذي أعطى قوة التعبير عن أعمق العواطف بالطف الالفاظ) « كآسي صغيرة لكني أشرب من كآسي » . وعلى هذا القياس للمصريين أن يقولوا : « جامعتنا صغيرة لكننا نتعلم في جامعتنا » .



ليست الجامعة منهل علم لطلبتها فحسب ، بل هي مهبط
وحي لي حين أبلغها قبل ابتداء الدرس الذي أبتغي حضوره
بدقائق أقضيها منتظرة متأمل .

فكم من فكر إنساني ما يحيط بي من آثار الحياة ! وكم من
تأمل التقط موضوعه نظري بين وريقات شجرة خضراء تتمايل
أمام النافذة ! وكم من حلم لحث خطوطه مرسومة في جو قاعة
الدرس وألوانه متخللة خيوط الأشعة المظلة علينا ! أفكار وتأملات
وأحلام رفرفت علي حيناً وغنت في نفسي كالأطيوار ، ثم فتحت
جناحها الذهبي ساعة جاء الدرس ينهني - فتحت جناحها
وانطلقت تعدو إلى آفاق قصبة أجهلها وأحبها لأن لي فيها
أطيواراً خيالية .

أنا الآن في غرفة صغيرة تابعة لمكتبة الجامعة ، وليس في
هذه الغرفة من الكتب إلا ثلاثة أجهل اسمها ولغتها لأنها خفيت
تحت كتاب رابع من تأليف مارمونتيل . وهذا أديب فرنسوي
لم يتفوق في موضوع من الموضوعات الكثيرة التي عالجها ، بل
اكتفى بالإجادة فيها جميعاً إجادة معتدلة ، تاركاً البراعة
والتفوق لأستاذيهما الكبيرين : فولتر وروسو . روسو الذي
حاول تكوين مجتمع جديد بقله القادر البليغ وملأ العالم ندباً
ورثاء . وفولتر الذي كافح القيود الدهرية برأس قلعه الرشيق
النافذ كالسهم إلى أعماق الأفكار ، وبإبتسامته الخالدة التي يرى
فيها أتباعه فجر الحرية المنبثق من ليل العبودية الاليل .

ان للأمكنة أرواحاً، وفي هذه الغرفة الصغيرة روح تناجيني
وسرّ أطمع في اجتلاء غوامضه. كلّ ما يحيطُ بنا في الحياة سرّ
ولغزٌ لكنّ حواسنا المثقلة بأحمال المادة تحجبُ عنا الانوار ،
فلا نرى للأشياء وجوداً ولا ندركُ لها حقيقة إلا بقدر ما تتفقُ
معانيها مع أطماعنا وشواغلنا .

كلما رأيته وحدي في هذه الغرفة شعرتُ بأن في جوّها
روحاً . أهي مجموع أرواح النوابغ الحاضرين هنا برسومهم
وبخيلات الافكار المطلة من أحداقهم ؟

نهضتُ أمشي في الغرفة ، أمشي وأفكر . وراء الطاولة
التي أكتبُ عليها صورةُ سفينةٍ ركبت من البحر جواداً حروناً
وسارت تقطعُ الامواج الكبار بقوةٍ وثبات . وتحت السفينة
إطار حوى ورقة ممزقة وفيها بعض السطور الهيرغليفية .

الكتابة الهيرغليفية قرب الباخرة ! ان جوار هذين الرسمين
لرمزي : السفينة فينيقيا والخط الهيرغليني مصر .

فينيقيا ومصر !

المدنيتان القديمتان اللتان بزغت منهما مدنيّاتنا الحديثة
والمحدرت من ذرائعهما توارىخ ذرائعنا ! ترى هل وقفنا على
جميع ما فيهما من الاسرار وعرفنا كل ما كان عندهما من علمٍ
وفن ومقدرة وسلطان ؟ أم نحن في ذلك مدّعون دعوانا في
سائر أقسام المعرفة ؟

قبل ان يكتشف كولمبس القارة الامريكية بقرون طويلات
كانت سفن الفينيقيين تضربُ في البحر طولاً وعرضاً وقد عثَّ
التاريخ خطوط رحلاتها ، ولكن أيُّ شيء أجهل من العلم إن لم
يكن التاريخ؟ ومن يدرينا ما إذا كانت اليد التي شادت الاهرام
وأقامت الهياكل المتراكمة اليوم بقاياها على رمال النيل ، هي غير
اليد التي أوجدت هياكل ، تُرى الآن انقاضها في أواسط امريكا ،
ونحتت ما عثر عليه لورد دوفرن من مسلات مصرية ونقوش
شرقية في كولمبيا البريطانية ؟

والتليفون الذي اراه في زاوية الغرفة على مقربة من الكرة
الارضية اهو اختراع هذا العصر فحسب ؟ ألم تكن من نوعه
الآلة التي يقال انها كانت مستعملة عند كهنة إيزيس وأوزيريس
لخاطبة كهنة الهياكل الاخرى من أقصى البلاد إلى أقصاها خلال
الاحتفالات السنوية الكبرى والاجتماعات الدينية ؟ ولماذا
لا يقوى العلم الحديث على استخراج الارجوان من الاصداف كما
كان يفعل الفينيقيون ؟ لماذا لا يُخرج لنا ألواناً ثابتة لا تتفص
نضارتها كألوان هياكل الاقصر ؟

أكان أجدادنا جاهلين ام نحن لهم ظالمون ؟ ام كل الفرق في
ان العلم كان عندهم محصوراً ضمن الاقلية المنتخبة وقد أصبح في
زماننا « حصّة من جدّ اعتراماً » ؟



ولكن لتتابعن سيرنا في الغرفة :

في منتصف الجدار إلى اليمين صورة هوغو في شيخوخته ويده تحمل جبهته المثقلة بالأفكار العظيمة . كأنما هو في جلوسه يناجي الاجيال قائلاً : ها أنا ذا ! أنا هوغو الذي أثلته الحياة مجداً وثروة وحباً . أنا ذاك الذي شاخ في المنفى فكان سعيداً في الشقاء . أنا ذاك الذي بحث عن نوابغ الماضي ودون أسماءهم تاركاً بعدها مكاناً واسماً لإسم جديد . والإسم الذي أعني إنما هو اسم الرجل الجالس هنا حاملاً على يده جبهته المثقلة بالأفكار العظيمة : فيكتور هوغو !

وإلى شمال هوغو أرى الفيلسوف الرياضي ديكارت الذي قال فولتر في وصفه انه جمل العميان يبصرون ، إذ بيّن للقرن السابع عشر اغلاط القرون الخاليات وجعل شعار هذه الجملة : « لتبلغ الحقيقة يجب أن تنسى مرة في حياتك جميع الآراء والاعتقادات التي شُبِتَ عليها ، ثم تقيم أسساً جديدة لآراء واعتقادات شخصية » .

إلى شمال ديكارت أرى بوسويه اسقف « موو » . ترى بأي شيء يسرّ ديكارت إلى بوسويه في ساعات الوحدة ، وبماذا يحيب الاسقف الكاثوليكي ؟ ليت لي من سبيل إلى التجرد من جسدي

حيناً لأسمع محاوراتهما ولو مرة واحدة ، ولأعلم كيف يتناقش العلم والدين في عالم الأرواح .

على يمين هوغو موليير الشاعر الفذ الذي ملأ رواياته ، وراء لهجة الاستخفاف والظرف والتنكيت ، انتقادات اجتماعية وعلمية ودينية ، وعلم أهل زمانه الضحك من أنفسهم غير متدمرين .

وعلى يمين موليير وجهٌ نحيف جذاب . من هذا ؟ لو نسي مصورك كتابة اسمك تحت رسمك ، لو دُرِسَتْ آثار فكرك وعلمك وانتقادك وطمسَ الزمان كل ما أيده قلبك ، لو أكلت النار وجهه غير مبقية إلا على شفتيك لعرفتك يا فولتير ! يا لعلمك من فم هائل في كلامه ، هائل في بسمة ، هائل في سكوته حتى في سكوت الصور !

تحت هوغو إطار ذورسمين يمثل أحدهما راسين والآخر بوالو . ولو أنصفت الجامعة لوضعت راسين فوق هوغو وأقصت النظام بوالو عن الشاعرين . لكنني أفهم أن صورة هوغو عندها أكبر من صورة راسين . كذلك تسير مواكب الحياة ! فكثيراً ما يقطن الأكبر تحت الكبير ويقف الأحسن دون الحسن ، ولكلٍّ ان يرضى بما قسم له لأن الزمان شاء ومشيتته لا تتغير !

من زاوية فولتير إلى الباب تمتد مكتبة صغيرة خالية مما
وُجدت له، تتجلى فوقها صورة امرأة عظيمة: مدام ده سفينيه !
كم تسرني رؤية هذه المرأة قرب هؤلاء الرجال ! كأن وجودها
هنا عنوان اهتمام الجامعة بالفتيان والفتيات على السواء ، كأن
صورتها على هذا الجدار صوت يستحث الفكر النسائي قائلاً :
إلى الامام !

على الجدار المقابل لجدار فولتير صورة فنيون « اسقف
كبري » مؤلف كتاب « تلياك » المفعم بالانتقاد الدقيق الحفي
لحكومة لويس الرابع عشر وللملك العظيم نفسه . وإلى جانبه
معاصره الشهير كورنيل واضع الروايات البديعات اللائي ما
برحن ميداناً ، فيه الحب والواجب يتنازعان .

وعند الباب هيكل عظام بشري إلا أنه صُنع من خشب
الجوز أو من خشب آخر دهن بهذا اللون . كل ما هنا يساعد
ما في جواره لجعل هذه الغرفة كبيرة في صغرها ، عظيمة في
سذاجتها .

صدق القائل ان للغرف ارواحاً ...

احب روح هذه الغرفة المزوجة من ارواح شتى

وهل من مخبر بما رآته هذه الجدران قبل ان تكون للجامعة
من ارواح وأحزان ، وبما شهدته من تقلبات الحدثان !

لعلها سمعت تهديداتٍ لم يلنْ لها قلبٌ، أو رأت قلباً وحيداً
لم يشاركه في ابتهاجه مشارك ؟

لعلها رأت دموعاً سخينة لم تمسحها اليد الرحيمة ؟

فولتير ! هوغو !

لو تكلمت الجدران لكانت أتم منكما بلاغةً وأعمق
تأثيراً !

في محكمة الجنايات

زرتُ اليوم مكاناً لعلهُ أَرعبُ الأمكنة بعد مسارح الجرائم
 الخفية ومواضع تنفيذ الإعدام . أعني القاعة الكبرى في محكمة
 الجنايات حيث يُصدرُ العدلُ البشريُّ أشدَّ أحكامه على مَنْ
 يكون في عرفه مجرمًا . ذهبتُ إلى تلك القاعة حيث تنعقدُ
 المحكمة العسكرية لمحاكمة المتهمين بأنهم من أعضاء « جمعية
 الانتقام » المتآمرة على خلع السلطان ، وقتل الوزراء ، وقلب
 الحكومة ، والتحريض على الثورة في البلاد . ما أُرهب هذه
 الحكومات التي تصوّر للمخيلة مشاهد الظلم والفتك والدماء
 والدمار ! ومن مميزات الحركة النسائية الجديدة ان المصريات
 امترجن بالحياة العامة فصرن يظهرن في كل اجتماع قومي ، حتى
 وفي أخرج المواقف وأوجعها للقلوب الوطنية . كذلك حضرَ
 بعضهم جلسات المحكمة بالتتابع .

دخلتُ الدهاليز الواسع بين الجنود المنتصبين بمنّة ويسرة ،

وخلالهم يختلط المحامون بأصحاب القضايا ويناقشونهم بأصوات خافتة على رغم منهم . فتلقاني جنديٌ حاجبٌ قدّمت له تذكرة الدخول فأوصلني إلى آخر . وسار بي هذا إلى ثالث وأنا أعدّ الأزرار الذهبية المتضدة على كتف كلٍ منهم ، وأنظّاهم بعدم الاكتراث لأسكت دقات قلبي . وما كان حتى رأيت ضابطاً ينحني امامي وهو يفتح باباً لم اسمع له ما يشبه الصوت . فوجدتني بفتة في قاعة متوسطة الاتساع قد تبلغ مساحتها العشرين متراً طولاً على عشرة أمتار عرضاً . وبدلاً من ان اخطو وراء الجندي الذي سار ليدلّني على مكاني ، ظلمت واقفة وأنا في اجفالي اتفرّس في الوجوه المستوية في صدر القاعة وقد اشربّت نحوي جميعاً . غير ان الذي تكفل بإيصالي عاد إليّ ثم مشى يهديني حتى أجلسني على المقعد الرابع ، وعلى مقربة مني « قفص » المتهمين .

أجميع الحضور يحدّثون في أم أنا في هلوعي أظنهم فاعلين؟ رفعتُ بصري اتبيّن الامر في سماء القضاة أولاً فإذا بهم يقبوني وقد ادركوا في سرّهم مقدار جزعي واضطرابي . وهل من نظريّ ينفذ إلى أعماق النفس ويمرّ بها من استارها كنظر القاضي ؟ ربما كان هناك شخص واحد يفوقه براعة ، وهو الكاهن الكاثوليكي الذي يكسبه تعاطي الاعتراف واستماع شكايات الناس ، حنكة ودراية ومعرفة بأسرار النفوس لا يماثله فيها من العلمانيين غير من شفت بصيرته بأنوار الإلهام .

لم اجراً على النظر إلى المتهمين . وشعرتُ بأن اسم النظرات عاقبة وأضمنها براءة هي نظرة اصعدُ بها الى سقف المكان مستوضحة هندسته وزخرفته .

زخرف محكمة الجنايات ؟ ما هذا المجون ؟

نعم ؛ هناك زخرفٌ وتميقٌ ، وهو عبارة عن خطٍ عريض نُنش بالنقوش الحجرية البيضاء ودار حول سقف القاعة في أعالي جدرانها الكلسية الجرداء . وقطعتُ خطوطُ أخرى من نوعه السقف ثلاثاً وأثالثه شكلاً مريضاً . ثم هبطت عيناى إلى الحوائط ، وفي احدها القائم شمالاً شبابيك كبيرة واسعة رُفعت الأستار الكتانية إلى اوجها فتدفق خلالها نورُ النهار الداخل من الحديقة الفاصلة بين هذه القاعة وبين الشارع حيث يسير الناس احراراً غير مقيدين . ولما فرغتُ من تفحص الحائط والنوافذ والستائر ، واستنزفتُ عليها كل ما جال في دماغي من ملاحظة ومناقشة وتعليق — مشى بصري قليلاً قليلاً إلى صدر الغرفة حيث استوت هيئة القضاء لتحكم بقسطاس العدل .

أين ذهب اضطرابي حتى واجهتُ نظر القضاء بهدوء هذه المرة ، وبى شعور يشبه الراحة والطمأنينة ؟ فعدلتُ جلوسي واستعدادي العقلي لأضع الأشياء في مواضعها .

هيئة المحكمة تتألف من قضاة عسكريين أربعة يلحق بهم

المترجم ، ويرئسهم قائد تبدو مرتبته في الأشرطة الحمراء المذهبة على كتفيه وكتبه ، وفي صفى الأشرطة الملونة الصغيرة الممتدّين على صدره واحداً فوق الآخر ليدلاً على ما عنده من مختلف المدايات والأوسمة . ويتوسط الهيئة « نائب الاحكام » وهو قاض في المحاكم المختلطة وأحد كبار رجال القانون الإنجليزي ، وهو وحده بين القضاة يلبس الشعر العارية الابيض والرداء الاسود . وإلى اليمين كرسى المدعي العمومي ، أو مدّعي الملك ، كما يسمونه في هذه القضية ؛ وهو كنائب الاحكام يلبس الشعر الابيض والرداء الاسود . وأمام المحكمة مكان المحامين ، فموقف الشهود ، تتناسق متتابعة وراءه مقاعد القاعة التي أجلس أنا في صفها الرابع ، وإلى يميني قفص المتهمين الذي تنتهي حدوده من الجهة الاخرى قرب هيئة المحكمة .

أيّ المواقف اغرب من موقف المتهم إزاء القاضي ؟ وأي كرهٍ قسري بين هذين الاثنين بين شخصٍ ضعيفٍ اعزل تحت رحمة الآخر ، وبين هذا الآخر الذي وُجد ليفسر الحركات والمعاني ويتصرف كيفما شاء في مصلحة المتهم وراحته وحياته . أيّ عداء وأي اختلاف أعظم من هذا ؟ مع ذلك فالاثنتان خاضعان معاً لجميع نوااميس الطبيعة وأهوائها . فلو تساقط الثلج الآن لا تنفضا معاً ، ولو زلزلت الارض زلزالها وفغرت فاهما لالتهمتهما معاً . ولو انتشر مكروب خبيث لتناولهما معاً ولتألم كلٌ على حدةٍ بمثل ما يتألم الآخر . بل ها هم جميعاً كلّت آدمغتهم

وأغضوا عيونهم وفي كل منهم احتياج يظهر حق وفي تصلب جلوسه ، احتياج إلى أن يتشاءب ويتمطى كما يفعل الاسد ، أو كما تفعل هرتي البيضاء عندما تأبى ملاعبة من لا يعجبها . وعند ما تخرج كلمة هزلية من فم المحامي أو القاضي أو الشاهد تلع عيونهم جميعاً ويشتركون في الضحك . ولئن بعث القضاة إلى المتهمين بنظرة نافذة مستفسرة باردة كالسلاح الأبيض ، حيناً بعد حين ، فلوا حظ هؤلاء تحال باسمه في الغالب .

نعم - في جميع عيون المتهمين ابتسام ، وهيئة القاعة عموماً بسيطة ليس فيها ما كنت أوقعه من مظاهر الغم والعبوسة . كأنها مكتب "لاي عمل من الأعمال التجارية مثلاً . وبيننا المدعي العمومي يتابع شكايته مستطرداً في الاتهام فيأتي بالحجة بعد الحجة ، وبالإثبات تلو الإثبات - إذا بالمتهمين لاهون عن أقواله بما بين أيديهم من جرائد ومجلات يقلبون صفحاتها ، ثم يتحدثون كأنهم يتبادلون الآراء في الموضوع الذي يقرأونه ولا علاقة له بالمحاكمة أصلاً . ثم يرسم الحزن في سواد عيونهم وتبرز على جباههم أحكام نقشها لهم القدر في كتابه النحاسي ، فيتأملون قليلاً ويتنهدون . إلا أن اجتماعهم إجمالاً يشبه باجتماع مدرسي جدي . أقول « مدرسي » لأنهم من طلبة المدارس العليا . فهذا كان يدرس الطب ، وذاك القانون ، والآخر من طلبة الأزهر ، وغيره من مدرسة القضاء الشرعي ، وهيئة التلمذة عليهم جميعاً إلا عبد الرحمن بك فهمي الواقف في مدخل الممر إلى التفتيش

كلجبار ، وعليه ملامح الحكام والوزراء^(١) .

حسن بزمهم يشير إلى درجتهم الاجتماعية ، وفي عيونهم
ترقص أنوار الحياة ، وعلى شفاههم يبسم روتق النضارة ، وفي
ذقون بعضهم تلك الطبعة الجاذبة التي يجسبها أهل الفراسة
علامة الحب الشديد ورمزاً إلى أن في صاحبها احتياجاً للشعور
بأن له من يعزّه ويحنو عليه . وإن حرمة شقي شقاء لا يدركه
غير أمثاله . فكيف يحتمل هؤلاء حياة السجن وراء الأبواب
المقفلة وفي عناء الأشغال الشاقة ؟ وكيف يحتملون القيود
والأغلال وكل ما هبأ المجتمع من نظام ولباس ويحوّل يأس
الجانبي إلى سخرية ظاهرة ؟ وأي التوسلات ستنتطق من هذه
الأقنعة ، وأي الدموع ستلهب هذه المحاجر ؟

تلاشى فجأة ما يحيط بي ، واتسع القفص ، وأضيفت إليه
جميع الأقفاص في جميع محاكم العالم وقد حشر فيها الألوف
والملايين . ورأيت في عيون الجناة صور جنائياتهم ، وفي عيون
الأبرياء صور براءاتهم ، وفي جميع العيون أشباح الخوف والفرع.
ثم انهدمت جدران القاعة وارتدت حدودها إلى ما وراء جميع

(١) عبد الرحمن بك فهمي سكرتير لجنة الوفد المركزية متهم بأنه كان يمدّ
« جمعية الانتقام » للمال والسلاح ، وهو من وجهاء البلاد وكان مديراً لمديرية
بني سويف (المدير في مصر يوازي الوالي في سوريا قبل الانقلاب الأخير بل
قد يفوقه أهمية) ثم عين وكيلاً لوزارة الأوقاف .

المحاكم في الماضي والحاضر والمستقبل . وصار القضاة الخمسة ألوفاً وملايين ، ونظراتهم النافذة المستفسرة الباردة كالسلاح الأبيض تتجّه نحو العيون المذعورة . وسمعتُ الأحكام على العبيد وعلى الملوك ، على المظلومين وعلى الظالمين ، وتراءت لي السجون بغمومها والأشغال الشاقة بذلتها ، وآلات التعذيب يهولها ؛ وبدأت أمامي وجوه الجرائم والفظائع والشرور فتقطعت أوصال إحساسي . وفي هذه الغرفة التي كانت تبسمُ منذ هنيهة سمعتُ صلصلة السلاسل وقعقة القيود ، ولمحتُ أحكام الإعدام على لابسي البذلات القرمزية السائرين نحو المشانق عراة الأقدام ...

ما هذه الضوضاء التي تخرج بي من هذا الكابوس الفكري ؟ أكلّ هذه جلبة الحبّال في الأعناق ؟ كلاً ، بل حانت ساعة الانصراف ، ورفعت الجلسة ، وانقرط عقد المجتمعين وهامم يخرجون إلى الدهليز الواسع المؤدي إلى الشارع . وهناك عند العمود الضخم المنتصب أمام المحكمة رفع أحد المتهمين نظره إلى إفريز العمود الأعلى ثم أداره سريعاً إلى الأرض وأرسل زفرةً محرقة . فنظرتُ إلى الإفريز الأعلى وإذا بطائرين قد وقفا جنباً إلى جنبٍ ينشدان أنشودة الحياة والحب والحرية .

« سعادة » ملك اليونان

نقلت برقيات اليوم خبر عودة الملك قسطنطين والأسرة المالكة إلى بلاد اليونان ، فقالت انه قوبل بحماسة شديدة وروت عنه هذه الكلمة « اني سعيد بالعودة إلى وطني » .

طبعي " أن يسر المرء بالعودة إلى بلاد أقصي عنها وهو يحبها ؛
طبعي " أن يرتاح لاستنشاق هوائها لا سيما وله فيها عرش كسائر
العروش انتصبت قوائمه على قوة الاستمرار والتسليم بلا مناقشة .
ليس تلاميذ المدرسة اليونانية الذين أسمعهم يهتفون لقسطنطين
عند الانصراف هم وحدهم أطفالاً يؤيدون من يجهلون وينادون
بما لا يفقهون . الجمهور طفل بوجه عام . موجة ترفعه وموجة
تدفعه . انفعال يطير به إلى قمم الجبال وانفعال يهوي به إلى
أعماق الهاوية . بولته الساعة من سينل بعد ستين دقيقة
وسيمجد غداً ما قدسه أعواماً ودهوراً . وهو في كل ذلك
هائج مائج ، مسير غير مخير يتدافع بلا ترو أو تعقل .

ومن الغرائب أن الأشياء تقوى بالتضاعف إلا ذكاء الجمهور .
فلو اختير خمسة أشخاص أو عشرون شخصاً من أرقى الناس
وجُمعوا للنقاش والبت في أحد الموضوعات ، وأُفرد لثل
ذلك شخص واحد متوقد الجنان ماضي العزيمة فلربما جاء الفردُ
بما قصرت دونه الجماعة . لأن مستوى الذكاء يهبط في الجمهور
ويختلط بينا هو في الفرد يسمو ويتناهى . وهو حدث
سيكولوجي معروف لدى علماء النفس . ولعلّ المقابلة بين
قاموس الأكاديمية الفرنسية الذي يشغل فيه عشرات
« الخالدين » منذ عشرات الأعوام ، وبين قاموس لاروس الكبير
الذي أنهاه فردٌ واحد دون مساعدة أحد - لعلّ هذه المقابلة
مصادق يقبله كثيرون .

على أن كلمة الملك تستوقف الذهن وتنبه المواجهس عند
قُومها . يقول إنه « سعيد بالعودة » . ولكن سبب هذه العودة
راجع إلى موت ولده ، إذ لو بقي الملك اسكندر على قيد الحياة
ما تقيض لأبيه أن يغادر سويسرا في هذه الآونة . وإذا كانت
« سعيداً » بالنتيجة فكيف لا يكون سعيداً بما أدّى إليها ، أي
ب وفاة ولده ؟

والذي ساقته المواجهس إلى هذه النقطة لا يحجم عن أن
يخطو خطوةً أثيمة أخرى ، فيقول : إذا سعد الملك بتلك الوفاة
بعد وقوعها ، فأى مانع منعه عن أن يسعد قبلئذ بتخيّل احتمال
وقوعها ؟ ترى ألم يمرّ في مخيلته خيال الموت وولده على فراش

المرض ؟ ومن يدري ؟ ألم يتحرك في قرارة نفسه شيء يشبه
الخوف أو ... التمني ؟

لا، لا أريد استطراد التحليل ! وسواء أكان هذا الوم ممكناً
أو مستحيلاً في قلب والدٍ أو والدة ، فإن النفس البشرية تبقى
دواماً هي هي في ارتباك انفعالاتها واشتباك نزعاتها. ولئن كانت
المواطن الأبوية قوية في الغالب فلکم ضُحَي من ولدٍ لغاية
شخصية ، أو لأجل قريب ، بل لأجل غريب إذا أحسن ذلك
الغريب لمس الموضع الحساس من حبّ الذات ، أو علل طمعاً
من أطماع النفس أو منّاها بإحدى رغائبها ...

لمضة مرعبة في قلب الإنسان . فلنحولن النظر إلى ما هو
أقلّ أدلهاً !

ماك سويني

على ذكر الملك اسكندر أقول أني ككثيرين غيري ، كنت
أرغبُ الأخبار عنه صباح مساء كل مدة مرضه . لم أكن لأهتم
بشخصه من حيث هو ملك اليونان « الموافق » الآن لسياسة
الدول . لقد أتعتني الطبيعة - أو أسعدتني - بأن جعلت
لفافة السياسة في دماغي جافة عقيمة لا تتأثر ولا تتحرك .
إلا أنه كان مذكوراً بالخير لسحقه تقاليد راسخة وتحطيمه
سلاسل وثيقة بزواجه من فتاة من ذوات الدم الأحمر الحيوي
الفوار ، بدلاً من الدم الازرق « الشريف » الذي ليس بشريف
ولا هو بأزرق في غير دعوى مدعيه .

كذلك كنت أهتم لأخبار ماك سويني إذ كاد يدخل العليان
دور النزع معاً ، وقد توفي أحدهما بعد الآخر بساعات
معدودات . وكل منهما بطل في بابه ، ضحية في بابه : فهما
مختلفان متشابهان .

ملك اليونان يقضي بعضه حيوان غاضب ، يقضي مرغماً

تمرضه امرأةٌ عزيزة . والآخر يقضي ببطءٍ مختاراً لا يداويه عزيز ، ولا هو يسير بنشوة الحماسة وجنونها نحو الموت بل ينتظره انتظاراً رياضياً ، منظماً ، متتابعاً ، متمسكاً عنيداً . يموت لينفذ كلمة قالها عند دخول السجن : « سأخرج من هنا بعد شهر حياً أو ميتاً » . ولم يثن عزمه ذكر زوجة وأبناء ينتظرون نعيه في البيت الحالي منه حيث لن يعود قط .

أي رجل كان ذلك الرجل ؟ حمل ثقل أزيح عن عاتقي عندما علمت بانتهاء آلامه .

لقد طالعت كثيراً مما كتب في الصحف الإنجليزية وغير الإنجليزية ، وقرأت يوميات دوجلاس في سجنه - وقد تكون مختلفة أو محرقة . وحضرت قدماً أقيم في كنيسة القديس يوسف لراحة نفسه . وظهرت هنا بعض الصحف الوطنية مصدرة برسمه ، وقد جرت في أعمدها أنهار النظم تنوياً بشجاعته وبطولته . أما أنا فلم أفهم بعد أية خدمة أدى إلى وطنه ، وأي درس ستلقى إيرلندا من موته سوى درس المثابرة والثبات ؟

أليس من الخسارة الفادحة أن يلاقي رجل كهذا حتفه مختاراً ، ليعطي وطنه أمثلة كان في وسعه أن يعطي عشرات لا تنقصها أهمية وإن اختلفت عنها نوعاً في حياته ، حتى إذا حانت ساعة الموت رحل عن الدنيا بميتة هي أنبل من الميتة الغبراء وأسمى ؟

زواج الملوك

« أثينا في ١٠ مارس سنة ١٩٢١ -
احتُسب في الكاتدرائية بزواج وليّ عهد
رومانيا بالبرنيسيس هيلانه اليونانية -
روتر » .

زار وليّ عهد رومانيا مصرأ في الشتاء السابق قاصداً إلى
اليابان، على ما أُظن؛ وقد دُعيت رحلته يومئذٍ « حمية النسيان »
فصارت اليوم « رحلة الشفاء » . أرسلوه يحوب الأقطار ليسلو
زوجته وولده وليّ عهد على إعمالها وإنكارهما . لأنه هو الآخر
فعل فعل الملك اسكندر واقترن بآبنة ضابط بسيط . غير أن
اسكندر اليوناني تزوج بعد ارتقائه العرش يوم لم تكن في الدولة
فوق إرادته إرادة . أما كارول الروماني فحاول التملّص من
وثقٍ يجعله إنساناً مركباً ، مقيداً ، رهين أهواء المناورات
الدولية . فتنازل عن العرش الموعود ، ورفض تاجاً يهينه له

المستقبل ، ورضي بأن يبقى رجلاً بسيطاً حراً سعيداً بزوجته وولده ، وأن يتمتع بالحقوق العامة كأحد رعايا رومانيا دون أن يطمح إلى ميزة أخرى .

كان ذلك ؛ فأرسلوه يُسرَّح عواطفه بين ماء القارة ويابستها . وعندما عاد بعد ستة أشهر إلى عاصمة رومانيا كان خطيب هيلانة اليونانية . وإذا وقف يشكر الذين شربوا نخبه في الوليمة الرسمية التي أقيمت احتفاءً بعودته ، رفع الكأس بيدٍ ثابتة وقال بصوتٍ جليٍّ أدهش الحاضرين : « علتُ في رحلتي هذه أن المرء يخصّ وطنه قبل كل شيء » .

ولما كنت أقرأ وصف المهرجانات المعدة في أثينا احتفالاً بمجيء الملك قسطنطين والعائلة المالكة كنت أفكر على رغمٍ مني في امرأة تمزق قلبها أصوات الفرح . هي وحدها تلبس السواد في وسط الزينة والأبهة ، وتبكي تحت نقاب الأرامل بينا الملكة تركز على جبهتها تاجاً كادت تفقده وترصع صدرها بجواهر العرش . تلك المرأة وحدها تذكر في وسط النسيان الشامل ، وشيء كثير ان يكون للمرء قلب واحد لا ينسى .

وهناك امرأة تشبهها في بخارست ، غير أن زوجها حيٌ سعيد وقد تملكته من جديد أطباع الملوك وأطباع انصاف الملوك ، وتهلّل شعبه يهداه - أو على الأقل زعم انه تهلل . الجريمة التي يعاقب عليها القانون بصرامة في طبقات المجتمع على اختلافها يُرغم على ارتكابها من يُعدّ بعد الملك منبع الشرف

في الدولة ، ويحسبون امتثاله وذله عقلاً وحصافة ؛ فيسارع
ملك آخر إلى تسليمه يد ابنته وحياتها . ومن توفرت له هذه
المزايا فلا بد أن يكون في الغد ملكاً عظيماً ...

أرملة اسكندر في أثينا ، وأرملة كارول في بخارست :
تري أيّ المرأتين أشقى ؟

الشباب والموت

لم يهمل سادتنا العلماء موضوعاً هو في نظر بعضهم الموضوع
الأمثل .

نحن نسمي هذه الدنيا « وادي الدموع » ثم نشفق على الذين
يفادرونها ، وأقصى ما نتمنى هو أن نمر طويلاً متمتعين
بخصائص القوة والصحة والشباب .

لقد استولت تلك الأمنية على قلوب الناس فجعلتهم آناً
كاذبين محتالين ، وآونة خونة مارقين . كم أفسدت من عمل
نبيل ، وكم قادت إلى فظيع الجنايات .

كل منا يريد التفلّت من شباك الردى ليطيل الجلوس في
مأدبة العمر مراقباً مناظر الطبيعة ، متسقطاً أخبار العالم ،
ثالاً حظه من التمتع والتلذذ ، ومن التوجع أيضاً . ولكم من
قيد الألم حتى تجاوزهُ الفلّ ، بينما قيود الجبور مقطّعة

الأوصال ، لا تقتنا 'تصهر مادتها لتستحيل الماء ذا طعم جديد .

كذلك أخذوا يبحثون عن « عين الحياة » التي أوجدها زفس^(١) فوصفها أحد علماء الجغرافيا وصفاً ... جغرافياً ، وارتأى كاتب رواي أنها تأتي من النيل ومن أنهار الفردوس الأرضي ، وأن قطرة منها تعيد إلى الليل صحته وإلى الشيخ شبابه . ومضى يطلبها رحالة اسباني فاكشف مقاطعة فلوريدا وهي من الولايات الأمريكية المتحدة . وانحنى الكاباليون على الصهور الكيماوي يبحثون عن مادة الشباب قنباري بايكون ، وسن جرمان ، وكاليوسترو في تركيب « اكسير الحياة » ، وتمددت الكتب الدالة على وسائل إطالة العمر وحفظ الشباب . ومتصفح جريدة « السائح » النيويوركية ومجلة « الأخلاق » يرى هناك إعلاناً عن « كتاب الاكتشاف الثمين لإطالة العمر مئات من السنين » بقلم الدكتور لويس صابونجي السوري الذي كان سكرتيراً ثانياً للسلطان عبد الحميد وأستاذ التاريخ لنجله البرنس برهان الدين .

وها أخذت تهتم الدوائر العلمية بمباحث الدكتور فرونوف ، وتجاربه الدائرة حول استبدال الغدد المتداخلة بين الأنسجة

(١) في خرافات الأقدمين ان جوبتر إله الآلهة حول حورية من بنات الماء إلى ينيوع يعيد الشباب والصحة إلى كل من استعم بمائه .

بغددٍ جديدة تُستخرج من الحيوانات . ويقال أن النجاح
باهر يحوّل الشيخ شاباً بلا وجعٍ ولا ألم بل بحقنة بسيطة
تحت الجلد .

إلى هنا وصلنا من طمعنا الأكبر . وحسن أن يستعيد المرءُ
شبابه وأن يحفظه طويلاً ، ولكني لا أرغب في إبعاد الموت
عن البشر .

لقد وصف الكاتب الإنجليزي «سويفت» في كتابه «رحلات
جلغر» حال قبيلة استرالديرج المحتّم عليها أن تعيش دواماً .
فقال أن أعضاءها يصرفون المئة سنة الأولى وشأنهم شأننا نحن
النوع الآدمي ، حتى إذا تجاوزوها أصيبوا بكآبة يائسة
وساورتهم الهوم والغموم . ينادون الموت فلا يلي
ندامهم ، ويحدفون على الحياة كلما شهدوا موكب جنازة ،
ويعتقون الطبيعة التي حرمتهم لذة الموت وهناء الاستسلام إلى
الراحة الدائمة .

وأي نصيب أمرٌ من هذا ؟

ألا إنّما قيمة الحياة في رهبة الموت الذي هو جزءٌ منها .
وإذا أدركنا البصر في أحوال الناس ورأينا تلك الوجوه السقيمة ،
والأجسام المشوهة ، والأعضاء البتراء ، ورأينا ذوي العاهات

الأخلاقية الذين يُنزلون في المجتمع المصائب والأوصاب ويظلمون
عالة عليه طول حياتهم ، إذا رأينا ذلك أدركنا ضرورة الموت
وعرفنا فيه محسناً كريماً .

ثم ، أي اسم غير اسمه يخفف من حزن الحزين ، وأي خيال
غير خياله يلطف من يأس الآيس ؟

عائدة تتذكر ...

أيها المارّة أمام معاهد التعليم ، ما أجهلك بما وراء الجدران
من متراحم العواطف ومتضارب الانفعالات إهناك هيئة اجتماعية
صغيرة . والعمر الذي تحسبه أليف الصفاء والفغلة والهناء إنمّا
هو كالشباب والكهولة والشيخوخة أسير حمى الحياة . هناك
جميع صنوف الناس : المتيمن والمتطير ، المفكر والأحمق ،
الشجاع والجبان ، الرصين والطائش ، الشخصية الممتازة
والشخصية العادية ، النفس الأبية السماء والنفس الدعية المتبدلة.
وما الطفولة إلاّ مقدمة قد يكفي أن تطالها أحياناً لتلمّ إلماً
سريعاً بما ضمنه الكتاب من تفصيل وإسهاب .

كانت عائدة ذات طبيعة غنية خصبة. تحبّ الجري واللعب
والضحك ، أي بنية لا تحب ذلك ، ؟ وتبتكر للهو أساليب
طريفه ترفعها في تقدير رفيقاتها . ولكنها كانت وحيدة الروح.
وكثيراً ما تنزع عن ميدان اللعب إلى الحجر المنفرد في أطراف

الساحة ، فتجلس هناك ناظرة الى البحر البعيد ، الى زرقة
الفيحاء واستدارة الأفق الخيم عليها ، متمتعةً بحال الطبيعة
ومتهيبية إزاء روعتها جميعاً. فترى السفن، وقد تضاءلت بشاسع
المسافة ، مارة في تلك الزرقة القصية بكياسة ورشاقة ، تترك
وراءها خطاً أبيض طويلاً لا تعرج فيه . عندئذٍ تمنع عائدة في
تفحص ذلك الخط المستقيم ، كأنما هي تقابلُ بينهُ وبين خطِّ
آخر رسمهُ في داخلها مرور سفينة من سفن أحلامها شقت
أمواه نفسها العميقة .

كانت تحسنُ ركوب الخيل على حدائق سنّها ، وقد قطعت
على ظهر الجواد سهولاً وجبالاً نبضت حياةُ التاريخ تحت الأرض
منها ، وبين الأشجار ، وعلى الصخور وحول القمم . ما شهدت
جلال الطبيعة إلاّ عادت إليها تلك الذكريات مع صدى الاغاني
الوجدانية التي يفسدها أهل المضارب في الظلام فتثير بين ستائر
الحيام أنه جزع وغرام . أمام البحر ها هي شجيرة تتذكر ،
فتنشد من الالحن البدوية ما تهتز له أوتار قلبها .



تكوّنت بينها وبين إحدى الراهبات ، على مرور الايام ،
صدقة حارة تنشأ أحياناً بين النساء الجامعات بين غزارة
المواطف وحادّة الذكاء - ولعل تلك الراهبة كانت وحيدة بين
الراهبات وحيدة عائدة بين التلميذات .

لم تكن الأخت أوجني من معلمات عائدة ، فهذه من بنات « الداخلية » والأخت أوجني تتولّى تدريس أصغر الصفوف في « الخارجية » ، وليس بين المدرستين غير الصلة الحجرية لأنها في طرفين متباعدين من بناء الدير الواحد . فكانت ألفتاة تقول لنفسها « لو كانت هي معلّتي لتفوّقتُ في صفّي ارضاء لها ، بدلاً من أن أرغم الآن على العمل تحت مراقبة راهبة لا أحبها وإن قالت لنا الرئيسة انها حفيدة مارشال فرنسوي . ما أقل اهتمامي بك وبحفيدتك أيها المارشال العظيم ! وكم يسوّني أن أطيع حفيدتك ، أيها المارشال العظيم ! وكم أكره الواجب لأن حفيدتك تدعو اليه ، أيها المارشال العظيم ! ما أجهل الناس بأساليب الإخضاع والتعليم ! اذا كان وجه الطاعة والواجب عابساً ، كما يقولون ، ألا فلتأتِ الدعوة اليها من أصوات نغز منها الوجوه في حاليّ البشاشة والقطوب ... » .

لم تكن عائدة في سنّ أو في درجة عقلية تستطيع معها الإفصاح عن رغبتها بمثل هذا الكلام . وإنما ذلك ما كان يخالج ضميرها . والتعبير عن الشعور ان لم يبرز بياناً منسقاً واضحاً فقد برز زفيراً حاراً . لذلك كانت الصغيرة تصغي إلى صوت فؤادها وتلتنّهّد .

قلّ ما اجتمعت الصديقتان في غير الكنيسة حيث تحتشد عشرات الراهبات ومئات التلميذات من داخلات « بانسيونر » ، وبنات الميتم ، وبنات المشغل ، وبنات التفصيل . فتدخل كل

جماعة في الوقت المعين وتجلس في مكانها تحت رقابة المملكات .
وعند انتهاء الصلاة تنصرف كل جماعة في دورها فلا يختلط
الفتيات ، ولا يتحاذين ، وأن تلاقين صدفة فلا يتخاطبن . يعشن
غريبات في دير واحد لأن هيتن ... الهيئة الاجتماعية بما بين
أعضائها من فروق المراتب .

وقد تلتقي الصديقتان صدفة في الحديقة أو في أحد الممرات
فتبادلان الاخبار بسرعة بينما الميون تتحدث بلغتها المختلفة .
غير ان عائدة لم تكن لتقنع بهذه اللحظات النادرة . فتتحين
الفرص لتذهب خلال نزهة الظهر ، ولو دقائق ، إلى الجناح
الأخر من الدير وتدخل على الأخت أوجني وهي تطرز وحدها
في المدرسة منتظرة وصول تلاميذها وتلميذاتها .

ما أخطر هذه المجازفة وأعظم هذه الجرأة ! ولكن الفتاة
كانت تكافأ إذ ترى أمارات السرور على وجه الراهبة وتسمعها
قائلة « انظري إليّ ، يا عائدة ! » ثم تقول « يجب أن تتعلمي
الخضوع للقانون وألا تعودي الى مثل هذه « الفلتات » .
والآن استودعك الله ، اذهبي يا ابنتي ، اذهبي يا صغيرتي
ولا تنسيني ! »

يا ابنتي ، يا صغيرتي ، بمنل هذا تنادي الراهبات جميع

التلميذات . ولكنه من فم الاخت أوجني نشيد سماوي يظل
صداه متردداً في جنان عائدة .



جددت هذه « الفلثة » اللذيذة يوماً ووقفت عند عتبة
الراهبة وهي تلهث تعباً واضطراباً . رباه ! ماذا ترى في هذه
الغرفة وماذا تسمع ! بين ذراعي صديقتها فتاة تقريباً من عمرها
هي عائدة . الفتاة تبكي والراهبة تؤاسيها بصوتٍ شقيق قائلة :
« لا تبكي يا ابنتي ، لا تبكي يا صغيرتي ! » .

لم تلح هذا المشهد حتى انقلبت راجعة من حيث أتت .
سمعت الفتيات في الخارج يتحسرن على هند « لان أمها ماتت » .
فهمت وقالت « مسكينة هند » . ولكن شفقتها كانت سطحية
لاستياها من هند المجهولة هذه التي أخذت مكانها ؛ والنداء الذي
يجب ان تنادى به وحدها ، الأخت أوجني هي ! هي استعمله
لتعزية الفتاة الغريبة ...

آه من خيانة البشر ! آه ما أضيق الحياة ! ما أثقل جدران
هذا الدير وأرهب ظلمتها المنعكس على ساحة اللعب مختلطاً بظل
الأشجار الكبيرة ! وتباً لهذه الأشجار فقد مشت الأخت
أوجني ، الخائنة ! ، تحتها ! وتلك الفروض التي يجب ان

تُكتب ! وتلك الدروس التي يجب ان تُستظهر ! ما أطيب
الموت ! أين أنت أيها الموت ؟

مسكينة عائدة ! كانت قوية الشعور فطرةً وقد ساعدت
تربيتها الاولى على تقوية عواطفها وإرهاقها ، ولم يكن لديها
العقل اللاجم ولا الخبرة الحكيمة . وكم من امرأة تقضي عمرها
على هذه الحال فتشقى وتشقى وهي لا تدري انها مريضة في
أعصابها ، وان نسبت ذلك الى الرقة . نعم ، الحياة نافذة ان لم
يبهجها نور الحب ويعظمها سناء الفكر ، ولكن بين هاتين
القوتين الجليبتين وسخافة الغيرة بونا شاسعا .

وصارت عائدة توجه الى الراهبة كل كلمة حواها كتاب
الصلاة في هجو الشيطان واحتقاره . وتلخصت معاملتها لها في
اظهار الاستياء والاستنكاف الى درجة المبالغة . وكلما أبدت
الصديقة الكبيرة ألماً زادت الصغيرة الشريرة تعذيباً .



تكاد حيوية الشر تتغلب على حيوية الخير . ولكن القلب
الوفي لا يفتأ يلمس من المحبة غذاءً ودواءً . لذلك أفرغ قلب
عائدة الكره في أسابيع وأخذت تتسرب اليه الكتابة .

أخذت تكتب لا سيما وقد دنا عيد الميلاد وأسمرت أيام

العام الأخيرة نحو هوة العدم . يخيل ان هذه المواسم أعلام العمر
أو محطات على خط الرحلة منه . فتحتاح القلوب الى مضاعفة
الحبة والصداقة والعطف والتبهر ، بينا قلوب أخرى تلهو
بالرقص واللعب والانشاد وما شاكلها من أمور خارجية .

وكانت تكتب لأن رفيقاتها الصغيرات أخذن يفادرن
الدير ليصرفن الأسبوع بين أهلن المقيمين في المدينة أو في
ضواحيها . وعائدة من بلدة بعيدة كل البعد ، لذلك لا يزورها
من ذويها في العيد أحد . وستقضي هذه الأيام وحدها بين أولئك
النسوة الصائمات ، المصليات ، الزاهدات ، اللاتي كانت تشعر
بأن منهن غير السعيدات رغم امتثالهن الظاهري ؛ فتودّع
رفيقاتها الواحدة بعد الأخرى متمنية لهن عيداً سعيداً . حتى إذا
مضت اخراهن انطلقت الى الكنيسة وحجبت وجهها بيديها
وأجهشت بالبكاء . وإذا بصوت مألوف يهمس في أذنها : « تعالي
يا عائدة . فقد سمحت الأم الرئيسة أن اشترك وإياك مع الأخت
حنة في تهيئة المنود » .

فانتصبت الفتاة وقرت هاربة الى حيث لا يُعثر عليها ،
وشهقت متفجعة تقول « اواه ! انها تشفق علي » ، انهن يشفقن
علي ! ربي ، ترى ايها أمر ، أخيانة البشر أم شفقتهم ؟ »



وكان مساء العيد حزينا ، وجوه مكفهرأ ، والدير صامتا ،
كتوماً ، مرمرياً كالقابر القديمة يضمنُ بنفائيه . وكان لعائدة
بومثنى ان تفعل ما شئت دون قانون يقيدها فتقتضي أكثر
أوقاتها في غرفة الموسيقى المنفردة في أطراف الحديقة تحيم عليها
الأشجار ذات الفصوص العارية .

هناك جلستُ طويلاً والسماء تمطر رذاذاً ، ثم نهضت الى البيانو
وما كادت تمس أصابع العاج حتى سحبت يدها قائلة « ما أشد
برد البيانو ! » ثم أضافت « بل البرد في يدي ، البرد في روحي ،
البرد في وحدتي وغربتي ! اني جليد ولكني جليدٌ يتعذب ،
واشعر بان كل ما في هذا الدير جليد حيٌ ينبض ويتعذب
ويبكي ! » .

ألقت برأسها الى خشب الآلة الموسيقية . على ان يداً لطيفة
اجتذبتها مداعبة شعرها وخذتها . فصرخت الفتاة قائلة
« اتركيني ! لا أريد ان يشفق عليّ أحد لأنني لا أطلب
الشفقة ! » .

فقالَت الأخت أوجني « واذا طلبتُ أنا شفقتك اتضنن
بها ؟ » وتابعت بصوت خافت مملوء بتعنيفٍ عذب .

« ألم تفكري في كل هذه المدة ؟ ألا تحتاجين إليّ في هذه الأيام مثلما احتاج إليك ؟ » .

وبدلاً من ان تبكي عائدة على خشب البيانو البارد الصلب ، أخذت تبكي على صدر لين دافئ علّقت عليه الصليب الفضي رمز التضحية والامثال ، واكتساب الحياة بالموت الاختباري .



رأيتُ عائدة اليوم في احد المخازن أمام مذودٍ نام فيه تمثال الطفل تحيطُ به رموز عيد الميلاد المختلفة . فقلت « أتذكرين أيام المدرسة يا صديقي ؟ » فاجابت « أذكرها على الدوام » . وأخذت تفكر في شيء بعيد . فحدّقتُ في عينيها ، وخیّلتُ إليّ اني أرى هناك رسم ابنة اثنتي عشرة سنة اتكأت على صدرٍ علّقتُ عليه الصليب ، وقد انحنى على وجه الفتاة الباكية وجه الراهبة الحزين .

فقلت : « أتذكرين الأخت اوجني احياناً ؟ » . ف اشارت بالايحاب . قلت : « حق بعد مرور أربع عشرة سنة تشجيك تلك الذكريات الصبيانية ؟ » .

فلزمت عائدة الصمت وقد بدا وجهها مهيباً ، ثم قالت :
« ذكريات صيانية ؟ وهل نحن الآن غير أطفال ؟ وهل الشباب
والكهولة والشيخوخة سوى مظاهر أخرى من الحياة الدائمة
الطفولة ؟ ما مرّ بي يوم إلاّ زدتُ اعتقاداً ان ما نراه ، ونشعر
به ، ونختبره في الحداثة انما هو ، هو ما نشهده متتابعاً من عام إلى
عام ، ولكن بصورة اكبر ، في ميدان العالم الواسع » .

حكاية السيدة التي لها حكاية

لكلِّ من الناس حكاية أولية يتناقلها الاقارب والأبعد بلهجاتهم المتعددة ويفهمونها بعقلياتهم المختلفة ، وينسجون حولها حكايات كثيرات . يسردُ الواحد « الحكاية » الأولية عن ذبيحته في تلك الساعة ثم يزيد قائلا وله معي أنا أيضاً « فصل » ، وله مع زميلي « عبارة » ، وله مع الآخر « طابق » الخ . ويحود بهذا الطابق والفصل والعبارة شارحاً متبسّطاً منمنناً مزخرفاً . ويصغي الآخرون متعجبين متأففين ، ويتعوّذون بالله العليّ العظيم ، وينكتون ويتهكّون كأنهم لم يأتوا هم ولم يأتِ بشرٌ قبلهم شيئاً شبيهاً لما يسمعون . وبدهيّتهم في تطبيق الأحكام على سوام لا يراعون قانوناً مرناً يستعملونه في الحكم على نفوسهم والقاعدة الذهبية القائلة بحُبِّ القريب ومعاملة الآخرين بمثل ما يودُّ المرءُ أن يُعامل ، لا تزال قاعدة ذهبية ... فحسبُ .

لا يراعي الناسُ في حكمهم على الآخرين ما يميزونه لأنفسهم

ولإنما يحكون وفقاً لنصوصٍ صلبةٍ مُجمعت في الجدول الأخلاقي الذي يتسلحون به أمام بعضهم بعضاً . فإذا ما طرحت العيوب في سوق المزايدة ، هي مزايدة لا تقبل المناقصة مطلقاً ، عمد المتحدثون الذين صار كلٌ منهم في ذلك الموقف بارأً صفيّاً وقديساً مفضالاً ، عمدوا الى ذلك الجدول الصارم كوجه الجلاء . وكما ان جدول الحساب الذي وضعه فيثاغورس اليوناني هو جدول ضرب كذلك كان الجدول الأخلاقي لمساويء العباد والحكم عليها ، جدول ضربٍ تعالت أرقامهُ الشريفة عن كل طرحٍ شائن !



كثيراً ما كنتُ التقى بالسيدة . غ . ب . في أماكن مختلفة ! في الكنيسة ، والحفلات الموسيقية (كونسرت) ، والمحازن الكبرى ؛ وكان يندر أن أسير في شوارع حيّ الاسماعيلية كشوارع قصر النيل ، وعماد الدين ، والمفرجي ، والمدابغ ، وسليمان باشا ، دون أن أراها مارةً كأنها تقطن هذه الجهات أو قريباً منها . فإذا كنتُ مع صاحبةٍ أو رفيقةٍ لُفِظت بيننا تلك الكلمة التي يتبادلها النساءُ ، والرجال أيضاً ، مع احترامٍ لسادتنا الاجلاء ، لدى مرور سيدة ذات ميزة ما . تلك الكلمة هي « انظري ! انظري ! » ولتلك السيدة غير ميزة فهي معروفة بجمال الصوت وقد سمعتها في حفلتين اثنتين . وهي أنيقة الهندام

تتزيا بأحدث الازياء ، بل هي من السابقات الى ترويج الازياء الحديثة في القاهرة . ويقولون انها حسناء .

كنتُ أشاهدها عن بعدٍ فيستلفتني اليها ذلك الشيء الخاص في كل انسان وليس هو الهندام ، ولا ملامح الوجه ، ولا الحركة ، ولا السكوت ولكنه شيء مبهم يختلف باختلاف الأشخاص . ويزعم بعض أهل الفراسة ان مقرّبه بين العينين ؛ ويدعي غيرهم انه في انسان العين ، أو حول الفم ، أو في خطوط الشفاه ، أو في ارتكاز الذقن . وأنا لا أعلم سوى انه موجود وانه المكوّن الأكبر لما نسمّيه « معنى » الشخص . وهو عند بعضهم قوي* ، شديد التأثير ، يلتصق بنفس الراي فلا يعود ينسى ذلك « المعنى » ولا ينسى حامله .

بعد كلمة « أنظر ! انظري ! » لابد من « حكاية » عن موضوع النظر . وهكذا سمعتُ عن تلك السيدة حكايات جمّة جعلتني كثيرة التفكير فيها أسائل « معناها » الباقي في نفسي ماذا عليّ ان اصدق من كلّ ما قيل ويُنال . ويزيد اهتمامي بها بترآكم الحكايات عنها ، كأني ذلك الرجل الذي تعرّف الى أحد المشاهير وقال « سمعتم يذّمونك فشاقي التعرف بهولك »

عينها كانتا أعلق الأشياء بمحافظتي . هما عينان متغيرتان تظهران مرةً عينيّ امرأةً وجيمة صابرةً وحيناً تفكران معرضتين عن جميع مظاهر الحياة . ويوماً تكتئبان نظرةً

لا قرار لها ، وتخترقان الأشياء الى فضاءٍ يحيطُ بها ، كأنهما
 ترقبان في الهواء اشارات يدٍ غير منظورة . وطوراً تبدوان
 كعيني الشخص الاجتماعي الذي يتمتع بافراح عادية ويكتفي بها
 غير متخيل وجود ما يفضلها . ثم تتألقان سعيدتين كأن الحياة
 أشبعتهما مسرات لطيفة هادئة وحققت منهما بعيد الأماني .
 إلا اني كنتُ أحببهما عندما تذبلان وينطفئُ نورهما كأن
 صاحبتهما شاخت في أسبوعين خمسين عاماً . ثم التقى بها مرةً
 أخرى فأحسبها في ثوبها الوردي ، وبرنيطتها المرفرفة على
 وجهها ، طفلةً تنتظرُ من الوجود جميع صنوف الهناء .



أقامت يوماً نخبة غواة حفلة موسيقية في قاعة الاعياد
 الكبرى بفندق شبرد . وقد اشرف على تنظيمها استاذان
 شهران هما السيدة ك . أقدر معلّمة بين الأجنيات المتعاطيات
 تدريس فن الغناء ، ولها في منزلها اجتماعات حافلة بأجمل أصوات
 القاهرة من نساء ورجال درسوا عليها والتفوا حولها . والسنور
 ف . الذي يقطن هذه المدينة منذ أعوام وقد كثر تلاميذه
 وتلميذاته من مختلف الجاليات ، وتزايد عدد أصدقائه والمعجبين
 به الذين يرون معجزاته على البيانو متجددة كل يوم ، مدهشة
 كل مرة .

في تلك الحفلة غنّت السيدة التي لها حكاية الا اني لم أجد من

يحدثني عنها ، ربما لأن أكثر الحضور من أهل الغواة . فكلما عزف عازف أو انشدت منشدة زفّ الجمعُ التهانّي الى ذويه وذوياً ليضمنوا بذلك تهنئته زفّ اليهم عند ما يغني أولادهم ويعزفون . تلك المرأة لم يكن لها أهل ، ومع ذلك فقد أحدث انشادها تأثيراً كبيراً وأثار تصفيقاً حاداً لم تكن تقابله هي بغير السكون . وقد أطلّ من عينيها لبيبٌ قائم عميق وارتدت ملامحها هيئةً أمرّة تبعدها عن الشباب والشيخوخة معاً ، وتجعلها شبيهة بالثايل التي لا تتغير شاراتها وتظلّ في أوضاعها ثابتة على الدوام .

فكرت فيها طويلاً ذلك المساء ، وألّفتُ من كلّ ما سمعتُ عنها رواية كئيبة فقلت لنفسي « يا للخسارة ! لماذا تتجاهل هذه المرأة ذاتها ؟ لماذا لا تنسى أنها حسناء فترتفع الى القمة التي أراها أهلاً لبلوغها ؟ » .

وفي الفد جاء السنيور ف . ليعطيني درسي الموسيقي ولكن بدلاً من أن يأتي في الساعة الحادية عشرة ، وهي الوقت المعتن ، جاء قبل الظهر بعشر دقائق . دخل يفرك يديه وعيناهُ تلمعان وراء زجاجتي نظارته . فتدمرت وقلتُ « انك لا تبالي بوقتي يا أستاذ . لقد أتلفت صباحي ، بل نهاري كله ! » فضحك ضحكة ابتدأت في قرارٍ معتدل وانتهت في ما يشبه زقزقة

الطيور وقال : « أنا لستُ أستاذ رياضيات لألزم بالهجيء في الوقت المعين » . وفرك يديه من جديد ليستشهد بالمثل الفرنسي القائل « بعض التشويش ضروري لتجميل الفن » قلت : « ولكن وقي ... » فقاطع قائلاً « الدرس ، الدرس » وسمع الجيران مدة ساعة طويلة تلك الضوضاء الخاصة التي يحدثها التعرير والمراجعة في حضرة المعلم .

ولما انقضت الساعة بإجهااد وسلام طلبت حقي . والسنير ف . يعزف لتلاميذه القطعة التي يطلبونها اذا كان راضياً عنهم . وحقي الذي طلبته يومئذٍ قطعة موسيقى روسية كان قد عزفها في حفلة اليوم السابق .



فجلس الى البيانو وقبل أن يبدأ تكلمنا عن « الكونسرت » وتبادلنا الآراء في أصوات المنشدين والمنشدات حتى وصلنا الى ذات الحكاية . فسألته « أهى من تلاميذك ؟ »

أجاب « كلاً » ولكنها من تلميذات السيدة ك . وقد اجتمعتُ بها عندها غير مرة » .

قلت « أسمعهم يلعبونها قارة بالمدام وطوراً بالمدمازيل ، أمزوجة هي أم عزباء ؟ » .

فتنهذ وقال « يالها من امرأة مسكينة ! » .

فقلت : « وهل من ظروف حياتها ما يحرك الشفقة الى هذه الدرجة ؟ » .

فقال : « ومن ذا الذي لا يشفق على امرأة جمعت بين الحسن والذكاء والصلاح وهيأتها الطبيعة لتسعد وتسعد فلم يكن نصيبها الا الشقاء ؟ » .

قلت : « أي شقاء تعني ؟ » .

قال : « كيف ؟ ألا تعرفين حكايتها ؟ » .

قلت : « أعرف عنها نتفاً مبعثرة . ومن ذا الذي يستطيع أن يرسم الحياة امرئٍ صورة جليلة من كلام الناس ؟ » .

فتشهد مرة أخرى ، وجرت أقالمه بسرعة على السلم الموسيقي كأنه يسرح شيئاً من أسفه أو يبحث عن أسلوب جديد للحكاية قديمة . ثم غشت نظره سحابة وقال « كان والده هذه الفتاة قاضياً في المحاكم المختلطة وهو على جانب كبير من العلم والذكاء ، فعلم ابنته وثقافتها أحسن تثقيف . ولما جاء وقت الزواج جرى لها ما يجري لفتيات كثيرات ، أي أن والدها انتقيا لها خطيباً أجنبياً مثلها ، رأيا فيه ما يملق مطالبهما الاجتماعية . وكان على الخطاطب مسحة من الجمال فلم تعارض . ورضيت كما ترضى الكثيرات من أخواتها ليفرحن بالأنواب ، والأساور والحرية

المنتظرة . فتزوجت في عرس فخيم دُعي إليه أعيان الجاليات
الأوربية . ولم يكن حق استولى الزوج على البائنة المتفق
عليها .

وقف الأستاذ عن الكلام ، وقد بدت على وجهه سياء الخجل
والرحمة والاحتقار جميعاً . ثم قال بعد سكوت قصير « كم
أشقت المرأة من رجلٍ ، وكم مزقت من شملٍ ، وكم كسرت
من قلبٍ ! ولكن مسكينة هي عندما لا تكون شريرة ! مهما
علت في عين نفسها ، ومهما تحررت من قيودها ، ومهما بالفت
المناديات بحقوقها في رفعها الى مستوى الرجل فإن حياتها ، كل
حياتها ، تظل في قبضة هذا الرجل الذي تزعم انها مثيلته
وما هي في الواقع سوى ما يريد هو أن تكون . فإذا كان حراً
نبيلاً جعلها حرةً نبيلةً ، وان كان ذليلاً حقيراً حقّقها وأذلّها .
فهي ألعوبته ، وهي عبدته ، وهي الشيء الذي يتصرف به في
سائر الأحوال . وبعض ذوي الضائر من الرجال تروّعهم هذه
السلطة على المرأة ، وهذه القدرة التي تهزأ بتقلّب السياسة
والاجتماع لأنها أقوى من الاجتماع والسياسة وأمكن باستنادها
على الطبيعة نفسها . فيحجمون عن الزواج خوفاً من نفوسهم »

ضايقني هذه التعليقات على أهميتها لأنني كنت أرغب في
استماع البقية ، فقلت : « ثم ماذا جرى ؟ » .

قال : « جرى ان ذلك المتحدث كان مقترناً سرّاً بامرأة أخرى ، وكان يحتاج إلى نقود فكان الزواج أسهل وسيلة للفوز بحاجته . وبعد ثلاثة أسابيع اختفى » .

- « وكيف اختفى ؟ » .

- « خرج من منزله ولم يعد » . فجئنت زوجته في الأيام الأولى اذ ظنت انه قُتِل . ومَرَّت الأسابيع فشاع خبر سفره مع زوجته الأولى . فارسلوا يبحثون عنه في بلده بإيطاليا ، وهنا غصَّ السنيور ف . بريقه لأنه إيطالي ، ولكن ذهبت أتعاب البوليس سدى ، ولم يجدوا له أثراً لا في إيطاليا ولا في غيرها من بلاد الغرب . ولم يطل حتى توفي والد هذه المرأة التي غُدِرَتْ في شبابه ، وفي حبها ، وفي مالها ، وفي مركزها . فأُمسَتْ وحيدة فقيرة ، والكنيسة لا تحلُّ زواجها لأن الرجل لم يكن مرتبطاً مع زوجته الأولى بزواج كنسي بل كان زواجه اتفاقياً فقط . القانون يعاقب على هذا ولكن كيف يصل القانون الى من ضاع في المجهول ؟ ولو كسرت الكنيسة زواج المرأة لظلَّ الناس في ريبة من أمرها ، لأن المظلوم أكثر تعرضاً للشبهات والتخمين من الظالم ، لاسيما إذا كان

المظلوم امرأة والظالم رجلاً . لذلك ترين الناس يؤولون كل حركة تأتيتها لأنها حَكَتْ على ألسنتهم وصارت لأفواههم مضغة سائقة . ولو قضت أيامها بالصوم والصلاة والتقشف لما أنصفوها . ومهما نقدتهم الثمن غالباً فلا يبيعونها ذلك الاعتبار الوهمي الذي يتزلقون به لدى أهل الجاه والثروة والسلطان ، أو لدى من اتقن « البلف » عليهم . فأى غاية لهذه المرأة من الحياة ؟ لا هي طليقة تتصرف بأيامها ولا هي مقيّدة تجسد في تحطيم قيودها وتعزية وسلوى . هذه حياة بتراء أشقاها الرجل كما بتر وأشقى مثلها وقبلها كثيرات ... » .

قلتُ : « ولكن كيف لم تشعر هي خلال الخطبة أنه يخادعها ؟ » .

قال : « لا أدري كيف لم تفهم هي ولم يلح أهلها شيئاً من ذلك » .

قلت : « لعلّه تزوجها مخلصاً الا أنه ظلّ يفكر في تلك التي ربما كانت على جمال عظيم » .

قال : « يقول الذين يعرفونها أنها عجوز شمطاء ويتمجبون كيف يرضى بها هذا المتوقد المتألق جارية » . ثم أطرّق قليلاً وقال : « ولكن ليس للشباب والجمال دخل في هذه المسائل . الجمال يُبحث عنه في الصالون ، والمرسح ، والاجتماع ، والشارع

والمرأة المليحة تجذب النظر عادةً أكثر ممّن كانت أقلّ ملاحظة .
 على أن تأثيرها لا يتعدّى ذلك والتاريخ شاهد على قولي .
 وأقرب شواهد التاريخ نجدّها في وليّ عهد النمسا الذي نشبت
 الحرب أثر مقتله ، وهو الذي أعرض عن جميع الارشيدوقات
 النمساويات الباهرات الجمال ، وعن جميع الأميرات في الدول
 المالكة ، وتنازل عن العرش والتاج غير مرة ليتزوّج بمن هي
 أقلّ النساء ظرفاً وحسناً . وهي الكونتس دي شوتك وصيفة
 إحدى قريباته ، التي صارت بعد زواجها الدوقة دي هوهنبرج
 وقد قتلت معه في مفتحمة سراجيفو .

وعدّل السنيور ف . جلوسه وأخذ يعزف قطعةً حماسيةً
 حزينة من وضع بتهوفن وهي « مارش جنازة البطل »
 (Marcia funebre d'un eroe)



رأيتُ البارحة ، في حديقة بضواحي القاهرة ،
 السيدة ذات الحكاية . فهمتُ الآن لماذا يتغير معنى عينيها ؛
 ولئن لم أدرك بعد تماماً ماذا تعني كلمة « حياة بترء »
 فلمني أدرك ان الحياة تهيء لبعضهم ظروفاً لم يحملوا بها ،
 ولو حملوا لتلافوها مشياً على الأشواك والجمرات . وعلتُ

أن في ذلك القوام المعتدل ، وفي ذلك الهيكل الذي
يمثل القوة والأنفة قلباً ، قد يكون مجرحه الحب الصادق
يوماً إلا أنه اليوم يعذبه سرطان تتمدد منه الأصول في
جميع نواحيه ، ذلك السرطان العريق الذي لا يقتلع :
احتقار الحياة وعدم الثقة بالناس .

ساعة مع عيلة غريبة

الأشخاص

متاتياس - مالي من رجال البورصة
أغايي - زوجته يونانية الأصل تظهر الكنة
الأعجية في لفظها

مصادم سالم - أخته الكبرى ضيفة عنده مع زوجها
الدكتور سالم - صهر متاتياس

سميحة - أخت متاتياس الصغرى . عزباء تسكن
معه . وقد توفيت والدته هؤلاء الاخوة
الثلاثة على أثر ولادة سميحة

شفيق - طالب في مدرسة الحقوق . أديب وموسيقي.
أخو متاتياس لأبيه وقد توفيت والدته

كذلك بعد وفاة أبيه . يصفر سميحة بعامين
أو أكثر قليلاً

المكان

منزل فخيم في رمل الإسكندرية

الوقت

بعيد الساعة التاسعة صباحاً

متاتياس - (جالس أمام المائدة يتناول طعام الفطور وإلى
يمينه زوجته ، وإلى شماله شقيقته مدام سالم وسميحة . يتحادثون
عن أشياء عادية كالقصة الذي تألم منه الولد ، والخصام بين الخدم ،
والحصر على طاولة البكارا البارحة ، وكم ربح الجيران من
مدخول البوكر في الشهر المنصرم الخ . يدخل شقيق بلا تسرع
ويجلس يهدوء في مكانه قرب سميحة . متاتياس يرقبه بشيء من
الاستياء ثم يتنحّض ليجلو صوته ولينذر السامعين بأنه سيقول
شيئاً خطيراً . مخاطباً شقيق) : صحّ النوم !

شقيق - (بعد سكوت قصير) : لم أكن نائماً ، أنا أت من
حمام البحر .

متاتياس - من حمام البحر ؟ إذاً هذه الليلة لم تم كعادتك ؟
(شقيق يصب القهوة في فنجانته معرضاً) إذاً تريد أن تتنحّر

انتحاراً؟ أظنّ اني سأحتمل هذا طويلاً دون أن أدعك تشعر بأن
لك من يسيطر عليك؟ في الليل بدلاً من أن تفعل كسائر الخلائق
فتسهر في تياترو أو في سينا ...

شفيق - (مقاطعاً بأدب) : وهل من شروط الخليفة أن
تسهر (مفخماً اللفظة) الخلائق في تياترو أو في سينا؟

متاتياس - (دون أن يلتفت لمقاطعته) ... أو معنا نحن
أهلك فإنك تذهب إلى مجتمعات الدعوى ، والكلام الفارغ ،
والعقول المرقعة التي تسميها أندية الأدب والمناقشة والخطابة
(أغايي ومدام سالم يتبادلان إشارة أسف وتنهدان عالياً جداً)
وتعود بعد نصف الليل الى كتبك الشيطانية كأنّ نور النهار
لا يكفي لإضعاف بصرك وإتلاف صحتك وتقصير حياتك ...

أغايي - (تنهد مرة أخرى) : يا سلام !

متاتياس - (ينظر إليها شزراً لجراًتها على مقاطعته. ويتابع
متغيظاً) : كانت غرفتك منارة عند الساعة الثالثة فمتى نمت
ومتى استيقظت ؟ ألا تعلم أن الكتب لم يتاجر بها متاجر إلا
وجنته ، جنته وأفقرته ؟ أتريد أن تعيش مستعظياً ذليلاً ؟
ألسنا نحن أفضل من هذه الوريقات عدّة ابليس ؟ أليس مجلسنا
أهلاً لك حتى تقضي الساعات مسجوناً في غرفتك ، وعندما
تخرج الينا لا تعطينا غير الدقائق التي تقضيها على المائدة ؟

أهكذا يصطاف الناس ، أهكذا ينتزّهون ويعيشون ؟ أتعلم أن
أمرك صار يشغلني الى درجة القلق ؟ ساعدك الله على حياتك
كيف تكون !

شفيق - (يحرك السكر في فنجانه بهدوءٍ ويحتمل هذه
الوعظة بتجلد من اعتاد سماعها . يتكلم بأدب ورصانة) :
يسومني أن أكون سبباً لإزعاجك . ولكني لا أستطيع تغيير
فطرتي . ثم بأنني لن أفعل ما يؤذيني بل أتمتع بحريتي باعتدال .
أحب أن أشعر بأنني حرٌّ مطلق الحوية .

مدام سالم - (تشق متعملة التعجب والفيظ) : أخوك
يريد خورك وينصحك وأنت تقول له « أنا حرٌّ » ؟ نجتنا يا الله
من أولاد الجيل الجديد دا !

أغابي - دا أيه دا يا شفيق ؟ انت تبقى حرٌّ ازاي ؟

شفيق - (متألماً في ذكائه لمناقشة هذه الرؤوس الخاوية) :
ها قد ابتلينا بموضوع جديد ! وهل كلمة « أنا حرٌّ » ، هذه
الكلمة التي تُثبت وجود الإنسان أمام الوجود ، هل هي أثيمة
الى هذا الحد ؟ ان لي ذوقي وميولي ومطالبي ورغباتي وكلها
تختلف عن ذوق أخي وميوله ومطالبه ورغباته . لا يعني هذا
اني أفضله أو انه يفضلني . كل طبيعة حسنة منسجمة في ذاتها .
ولكنه عندما ينصحني ويعنفني يقدر أني مثله تماماً ، ويجردني

من نفسي ، ولا يتصور أني أختلف عنه كل الاختلاف . فحبذا لو تقامنا مرة واحدة ووضعنا حداً لمثل هذه المناقشات . لكل منا فطرته وحرية ؛ ولي حريقي وأريد أن أمتع بها .

مدام سالم - (وقد طفح كيل تعجبها) : يا ابني دا أخوك . يكبرك بعشرين سنة . دا رباك زي أبوك . دا هو احتضنك ورباك . وأنت مخطيء تتبع سبل الضلال ، ولما يحي ينصحك تقوم انت تتجاسر تقول له « أنا حر » .

شفيق - (متبعباً باهتمام تحنّي هذا المنطق الأعوج) : مَنْ يسمعك قائلة اني أسير في « سبل الضلال » بحسب أني ... (يصمت فجأة اذ يأنف متابعة جدال كهذا ، ثم يقول بشيء من المرارة) تلوموني لأنني لا أطيل الجلوس معكم ، وهل من عجب وكل جلسة كهذه الجلسة ؟

متاتياس - (يتنحج كمادته ليقول شيئاً خطيراً) : وكم دفعت ثمن الأرعن الذي جئت به البارحة ؟

شفيق - (بتأدب) : هذا أمر لا يعني غيري .

متاتياس - (يغضب حقيقة هذه المرة) : شؤونك المالية لا تعنيني ؟

شفيق - (ينجح في أن يكون هادئاً كالأول) : انها لا تعني غيري في هذا الموقف لأنني ابتعت الأرعن بما توفر لدي من

مصروفاتي الشهرية . وأنا حرّ في أن أشتري آلة موسيقية تسرني
ولا تؤذي أحداً .

مدام سالم - هو « حرّ » من جديد . هو « حرّ » كل مرة .

متاتياس - ألسـت مجنوناً ؟

شفيق - هـيـزُ كـفـيـه (: قـد أـكـون مـجـنـونـا لـأنـي
لـسـت مـثـل ...

متاتياس - (مـتـمـمـاً فـكـر شـفـيـق) : مـثـلـنا نـحـن ، أـلـيـس
كـذـلـك ؟ نـحـن عـقـلاء نـعـمـل كـجـمـيـع النـاس ، و نـجـتـمـع بـالـوجـهـاء
أـمـثـالـنا ، و أـلـعـابـنـا و مـسـرـاتـنا مـعـقـولـة مـعـتـبـرة كـأ ن أشـغـالـنا شـرـيـفة
كـثـيـرة الأـرـباح . أـمـا أنتَ فـانـظـر الـى مـا تـفـعـل و اذـكـر مـن تـعـاشـر .
و أنا أـرـيـد أن أـصـلـحـك رـحـة بـك و خـوفـاً عـلى مـسـتـقـبـلك فـتـقـبـل
نـصـحـي كـالـمـجـنـون الأـحـق .

شفيق - (يـهـدـوء حـزـيـن) : حـدـثـني عـن رـحـمـتـك ... انـي
حـتـى السـاعـة لـم أـلـح خـيـالـها ...

متاتياس - (يـتـكـلـف الشـفـقـة المـتـنـاهـيـة) : و ماـذا يـنـفـع الذـكـاء
و الـدـرس ان لـم يـقـدـمـا النـصـحُ و الرأـي ؟ اعـلـم ، أيـها المـغـرور ، انـه
كـما قـال الشـاعـر العـرـبـي (بـفـخـامـة و تـأنٍ في الألفـاظ) « الرأـي قـبـل
شـجـاعـة الشـجـمـان » .

(شفيق ينظر الى أخيه بعينين واسعتين دهشتين وفيها خيال الضحك . فتهمس له سميحة بسرعة : « لا تدهشك » هذه الفصاحة الفجائية ! هذا عنوان اعلان تجاري رآه في جريدة هذا الصباح قرب أخبار البورصة . هنا ينهض متاثياس بعظمة تتبعه زوجته ومدام سالم ويتجهون نحو الباب . وعندما يصل متاثياس قرب أخيه يتهمك قائلاً : « ابقَ على حريتك لندى الى أين تقودك » ثم يخرجون وشفيق مهمم بملس الزبدة على كسرة خبز في يده . وبعد أن يبتعد وقع أقدامهم يحيل النظر فيما حوله فيرى انه وحده فيحمل فوطته ويلوِّح بها في الفضاء كمن يطرد الذباب . فيسمع صوتاً يتكلم وراءه ويلتفت فيرى الدكتور سالم مشيراً نحو الشرفة حيث سميحة تسقي الازهار) .

الدكتور سالم - (مخاطباً سميحة) : أسمحين لي بفنجان
قهوة صغير ؟

سميحة - أسمح بفنجان قهوة كبير (تدخل من الشرفة
وتدنو من المائدة) .

الدكتور - أشكر لكِ كرمًا لن أتمتع به . يجب أن
أذهب الى المدينة في الحال (مخاطباً شفيق) كيف الحال ،
يا سي شفيق ؟

شفيق - في الحياة أمراض لا يداويها الطب ، يا دكتور .

سميحة - (بعطف أكيد) : لقد أنهكوا قوى هذا الولد
المسكين .

الدكتور - (يشرب القهوة واقفاً) : كذا ؟ وأي ذنبٍ
جنيتَ ، يا كثير الذنوب ؟

شفيق - هو الذنب الأكبر الذي لا ينتهي . وهل ينتظرك
في المدينة مريض ما ؟

الدكتور - لا تغير الموضوع . اخبرني عن ذنبك الجديد .

سميحة - سهر البارحة في النادي . وظلّلت غرفته منارةً
حتى الساعة الثالثة صباحاً . وابتاع ارغناً . وقال انه « حرّ » .
هذه قائمة الذنوب الجديدة .

شفيق - (لا يلتفت اليها) : ذنبي الذي لا يغفر هو اني لست
طفلاً . اريد ان افكر بنفسي ، وأعمل لنفسي ، وأعتمد على
نفسي . وهم يقذفون عليّ بآرائهم ونصائحهم في كل حين . وما
هي قيمة الرأي يا ترى اني لم اطلبه أنا ؟ وقد أطلبه وأسمعه
دون ان اتبعه . ثم اذا استشرت غيري كل خطوة فكيف اعرك
الأمر فأخطيء هنا وأصيب هناك ، وأكسب من الفشل
والنجاح اختباراً هو في الحقيقة أكبر وأقدر ما يقود المرء في
هذه الحياة المتشعبة السبل ؟

الدكتور - الرأي حسن ، يا شفيق ، عندما تطلبه وتكون
في حاجة اليه .

شفيق - (متحمساً) : حسن في هذه الحال وقبيح في
ما عداها . عندما اقصدك مستشفياً اعلم انك تستطيع شفاي
فأذن لأوامرك وأقبل نصائحك . وعندما أسألك رأيك اعتبرك
قادراً على وضع نفسك مكاني والشعور معي ، حقيقة بأن تقودني
في طريق سلكتها واختبرتها قبلي . ولكن ما قيمة الرأي عند
غير اهله ؟ كيف يرشدني في الموسيقى من لا يتقن إلا النجارة ؟
كيف يصلح اغلاطي اللغوية من كان صحيحه مغلوطاً ؟ كيف
يعلمي الصينية من لا يعرف عدد حروفها ؟ ثم كيف هو ينهاني
عن قيادة زورق حياتي كما اريد ؟ عجباً ! أألام لأني لا اقضي
ليالي حول الطاولة الخضراء ، ولا اصرف نهاري بين سباق
الحيل ، وصيد الحمام ، وحانات الرقص والشراب ؟ كنت وما
زلت اعتقد ان من كانت هذه حياته حق عليه الملام ، وما أنا
الذي اطلب الهدوء والوحدة أقابل بالشغب والعبوس . (بصمت
أسفاً لأنه تكلم ، إلا ان الكلام يعود متدفقا من شفتيه) يُعيرني
انه رباني صغيراً . والله يعلم كيف رباني ! انه ادخلني المدرسة
وهل كان بوسعه ان يفعل اقل من ذلك ! ويقول انه بمثابة الأب
لي فاي حنوً وطئ هذه الأبوة ؟ كنت اقضي في المدرسة شهوراً

طويلة دون ان اراه ، وإذا زارني هو و ... وهن حملوا إليّ
الحاوى واللعبات وكل ما تجلبه الدراهم ولكنهم لم يكونوا
ليعطوني منهم شيئاً . الدراهم أورثنيها أبي مثل ما أورثهم . اما
قلوبهم فكانت مختومة كالقبور . كنت ابكي - أسمع يا دكتور ؟
قلتُ ابكي - كنت ابكي عندما ارى رفاقي في احضان ذويهم
محبوبين مدلين ؛ اما هو فكان يأتي ويذهب بلا قبة عطف ، بلا
كلمة محبة ، بلا نظرة اهتمام لليتيم الصغير الذي كنته . وكم
كنت مستعداً لأحبه ! وكم كنت اتمنى ان يتركني احبه دون
ان يحمدي قلبي ! ولو علمت اليوم انه ينصحي مهتماً مخلصاً لسعدتُ
بالتنازل عن رأيي وسارعتُ الى اتباع ما يشتهي . ولكنه
ينصحي ليجمّل لنفسه امية وليذلني ؛ ولو أذعنْتُ لكلامه
لحظة ما تأخر عن تغييره في اللحظة التالية (يتنهد) لا أستشقى
في هذا البيت غير هواء المقت والكظيمة . انهم ينظرون اليّ
كدخيلٍ مقتصب . وهذه امراض عضّالة لا تستطيع معالجتها
يا دكتور (تلتقي عيناه بعينيّ الطبيب وهو ينظر اليه طويلاً
بمطف يشبه المصادقة . فيهرز رأسه فجأة ويحاول الابتسام)
استمحيك عفواً فقد مزجتُ قهوتك بالشكوى . (يهرز كتفيه)
ما احقر الشكوى وما احقر الشاكي ! (يتغلب على نفسه ويرسل
زفرة عميقة) انتهى يا دكتور .

الدكتور - (متجهاً نحو الباب) : نصحي اليك ، وإن
كرهتَ النصائحَ ، ان تخرج من نفسك بقدر الإمكان . ان
عكفك على ذاتك يزيد عواطفك رقةً وتهيجاً . احتك بالناس ،
اسمع ثرثرتهم ، شاركهم فيها ، اخرج الى الهواء الطلق ، تعاط
الالعب الرياضية . العب ، العب ، كن من أبناء جيلك لئلا
تتعذب كثيراً .

سميحة - (تقمز ضاحكة) : سلمني مريضك فأمرّضه
يا دكتور ! (الى شفيق) تعالَ معي الى الهواء الطلق ! تعال
وكن رابع رفقائي في دور « التنس » هذا الصباح ! (يخرج
الطبيب مسلماً ويحاول شفيق اتباعه فتسدّ سميحة الطريق
قائلة) : لا تذهب هكذا . لئن ساء في أن أراك غاضباً فإنه
يحزنني أن أراك حزيناً . وعندما يضايقونك يضعف احتمالي
وينفذ صبري .

شفيق - (ببرود) : يحزنك ! يسؤك ! انك مثلهم
جميعاً .

سميحة - ما أجهلك بي ! لماذا لا تنظر إليّ ؟ لا أدري أنت
حقّ أم متاتياس ، ولكن ميلي معك .

شفيق - (بلا اكتراث ودون أن ينظر اليها) : عجائب !

سميحة - لو علمت اني في حاجة اليك، وإني شقية مثلك
في هذا البيت لما كلمتني بهذه اللهجة .

شفيق - (يتكلف الاهتمام التمثيلي) : شقية أنت بين
حمامات البحر ، ولعب الكرة ، والسهرات الراقصات ،
والسينما ، والتياترو ، ومغازلة أبناء الوجهاء أمثال أخيك ؟
تعزي بالأثواب الجديدة ، والفلاند الكثيرة ، والكماب
الطويلة ؟ تعزي ولا تحزني ! (ينظر الى ساعته) مضى الوقت
أرجوك ان تدعيني أخرج .

سميحة - (بتأنٍ) : قلت اني في حاجة اليك .

شفيق - (يخرج من جيبه مفكرة وقلم رصاص) : صحيح ،
نسيت ؛ بماذا تريدن أن أجيبك من المدينة (منتظراً أن
تكلم ليكتب) بودرا ؟ خضاب ؟ عطر ؟ زهور ؟ شكولاً ؟
أي شيء ؟

سميحة - (يظهر الحزن في وجهها . وتفصح له الطريق
قائلة) : لك أن تخرج .

شفيق - (يخطو العتبة وهناك يتردد ذاكراً خشونته . ثم
يلتفت ويعود نحو سميحة وينظر في وجهها متمتماً ما يشبه

الاعتذار (: انك لا تتقمن عليّ ، أليس كذلك ؟

سميحة - وماذا همك ؟

شفيق - لا همني ! لقد هنتُ على الآخرين فهاؤا هم عليّ .
لا همني شيء .

سميحة - فهمتُ اني لا أهمك وإنك لا تريد أن فعتني
بأمري . أعدتَ لتقول هذا ؟

شفيق - عدتُ لأقول . . . (بتردد) أراك غير
راضية .

سميحة - حقاً لستُ راضية . اني شقية .

شفيق - (لا يريد أن يتأثر) لستِ جادة .

سميحة - وهل من شعاعٍ أوفر جدّاً من أن تقصد
زوجة متائباس أن تزوجني لأحد أقاربها واسمه
خريستوبويو لاندو بولس .

شفيق - (يرفع يده كمن يقي رأسه لكمة) يا حفيظ !
ما كل هذا ؟

سميحة - كل هذا اسم واحد . (يائسة) اسم بملأ بطاقة
الزيارة من أولها إلى آخرها .

شفيق - (مؤاسياً) هوّني عليكِ ! وماذا يقول
متاتياس ؟

سميحة - وماذا يُنتظر من رجلٍ لا قيمة عنده إلاّ للمال ،
وكل اسمه متاتياس ؟

شفيق - (يضحك) لست أدري لماذا أعطوه هذا
الاسم .

سميحة - يظهر ان ابن جارة يونانية لنا كان يُدعى به .
وربما كان نبوءة بأنه سيقترن بامرأة يونانية من ذوي قرباها
خريستوبوبو لاندو بولس هذا .

شفيق - ممكن (يضحك) . ثم تعود اليه هيئة التفكير شيئاً
فشيئاً (إذا تتخوفين الإرغام ؟ أزعجك الإرشاد المتتابع ، أم
في هذا القلب الصغير شيء آخر ؟

سميحة - أنت طيب كجميع الرجال الأذكاء .

شفيق - (يتفحص وجهها بدقة) وكيف عرفتِ جميع
الرجال لتعلمي أن الأذكاء منهم ...

سميحة - (مشرقة الوجه) أعرف الجميع لأنني أعرف واحداً
(تهز رأسها لتخفي خجلها) وأنت اخبرني اسرارك : بين
الكثيرات المفضلات على الكثيرات ، والقليلات المفضلات على
الأخريات ، ألا يوجد واحدة ...

شفيق - (يأتي اشارة مبهمه ونظره يتبع خطوط حلم
بعيد) ليس هذا من شؤون الفتيات . وساروقيمك هذا من
أبطال « التنس » ؟

سميحة - ان ذكائك لمدهش ! هو زميلي وقد غلبته مرات
مع انه لاعب ماهر .

شفيق - وقد نال حظوة في عينيك لأنه لاعب ماهر أم لأنه
مثل دور المغلوب ؟

سميحة - (تحلم) لست أدري . انه يجذبني خصوصاً ونحن
وحدنا في الليل على شطّ البحر .

شفيق - (متبرّماً) : وحدكما على شطّ البحر ، وفي الليل ،
ما هذه الحكاية ؟

سميحة - (تتغير ملامحها وتجللها الهيبة والعظمة) : هناك
عطفة تؤدي الى الشط حيث طائفة صخور لها صور

الضواري وأشكال الكواكب . ينبسط أملها البحرُ بمرور وجهِ
الملائكة وتهدئه العميق الفسيح . هناك تحت عيون النجوم أجلسُ
على مقربةٍ منه ، أجلسُ في حياهٍ فيتنجس هو والبحر صلتين
وأظُلُّ حابسةً أنفاسي لأستمع لنجولهما .

شفيق - (مأخوذاً بهذا الشيء الجديد الذي لم يعبده فيها) :
أشاعرة أنت ! حقاً ان المرأة لفز . (ولكنه يعود إلى ما يشغل)
ومن ذا الذي اكشف هذه الخلة ؟

سميحة - ومن ذا الذي يصنع الأعاجيب غيره ؟ اكشفها
وقال « تعالي » فذهبت .

شفيق - (غير مسرور) أيكفي أن يقول « تعالي »
لتذهبي ؟

سميحة - (تملأ عينها مشاهد بعيدة) يكفي أن يقول
« تعالي » لأذهب .

شفيق - (جاداً) أنصحك ألا تذهبي بعد الآن . (سكوت
قصير . ثم يقول آمراً وبقوة هائلة) لا أريد أن تذهبي .
أتفهمين ؟

سميحة - (تعود الى خفتها الأولى . مقلدة صوته)
 « نصحي إليك ألا تذهبي ، « لا أريد أن تذهبي » ، ثم
 بلهجة خطابية فخمة وإشارة تمثيلية واسعة (اصفي خاشعة ،
 ايتها الشعوب ، فإن اخاماتاياس يتكلم !

ثفيق - (متقلبا على نفسه لا يريد أن يضطك)
 اسمعي يا بنيّة . أنت لا تعرفين هؤلاء الشبان ولا تسمعين
 ما يتبجحون به أمام بعضهم بعضاً . يكفي الواحد منهم
 أن يعرف فتاة معرفة سطحية وأن تكون علاقته بها
 اجتماعية محضة ، فتجامله مجاملة تقضي بها الاصطلاحات ،
 بل قد يكفي أن يراها مرة واحدة ليذكرها بلهجة نوم
 أنه واقف على جميع دخائلها . لو علمت النساء جميع
 التعليقات ، والملاحظات ، وانصاف الابتسامات ، انصاف
 النظرات ، وصنوف السكوت الخبيثة التي يشفع بها
 ذكرهن أولئك المتلقون ! آه لو علمت النساء النافلات !

سميحة - شرير منك أن تعتمد إلى الوشاية .

ثفيق - هذا هو الواقع مع الأسف .

سميحة - قد يوجد بين الرجال كمن وصفتَ ولكن هو
لا يشبههم .

شفيق - كلُّ امرأةٍ تُكبرُ بطلها وترفعه فوق
الآخرين . أقول لكِ أنه يكفي أن يصافحها ...

سميحة - (بلهجة الغالب) وأنا أقول لك انه
لا يصافحني .

شفيق - (مرتاباً) ألا تصافحينه قبل « التنس »
وبعده ؟

سميحة - أصافحه وقتئذٍ ، واصافحه كلما اجتمعت به
في الأندية العامة كما أصافح غيره من معارفي . أما في تلك الخلوة
القدسية ، فلا .

شفيق - أهى معاهدةٌ بينكما ؟

سميحة - تعاهدتا ولكن بغير كلام .

شفيق - لم تتصافحا بالراحة ، أما الغد فمن يضمنه ؟
لو مدَّ لك يدهُ ، نعم لو مدَّ يدهُ وقال « ضعي يدك هنا »
فماذا أنت فاعلة ؟

سميحة - (لا تريد أن تتخيل ذلك) : هذا غير ممكن .
هذا مستحيل .

شفيق - ولكن هي لحظة أن المستحيل ممكن . إلو مدّ
يده غداً وقال (يلفظ الكلمات بتأنٍ متعمداً) بلهجة قوله
« تعالي » ، لو قال بتلك اللهجة « ضعي يدك هنا » فماذا
أنتج لآلة ؟

سميحة - (حائرة حزينة) أتركه ، أهرب ، ولا أعود
ألتقي به . (ترفع رأسها مفاخرة) غير أن الرجل الذي
احتمي بحماه لا يُخرجني إلى الحرب .

شفيق - كم تحببته ! (سميحة تضطرب كأن هذه الكلمة
لمست من نفسها مكاناً مؤلماً فتسبل أجفانها وتسحّ دموعها ببطء .
شفيق يتأملها) أ إلى هذا الحد ؟

سميحة - (تفتح عينيها فجأة وتسأل بحرقه) شفيق ،
قل لي ! أظن ان فتاة مثلي ، فتاة عادية مثلي ، تستطيع
أن تسعد رجلاً حادّ الذكاء ؟

شفيق - (يبتسم بحلم) أرى جميع أعراض المرض بادية ..
وأراك ككلّ امرأة تبالغين في قدر من تحبين . (يسكت

متألماً) أتمنى ان يكون هذا الغلام أهلاً للكنز الذي هو أنت .
(ثم معاتباً ومداعباً معاً) وهكذا أفقد أختي ساعة أجدها !
إذا سرق هو كل شيء ، فماذا يبقى لي ؟

سميحة - في صدر المرأة قلوب ، يا فيلسوف ، وعلى كلِّ ان
يحد القلب الذي يخصه . (عائدة الى الموضوع الرئيسي) خلاصة
كل هذا إني اتكل عليك في دحر متاتياس وخريستوبو
بولاندوبولوس وشركائهما .

ثفيق - سندحرم ! ومعنا الدكتور سالم الذي احترمه
لأنه ليس على وفاق مع أختك زوجته .. مسكين ! أما
سهراتك أنتِ على شط البحر فسيكون لك من يرقبها
ويحرسها ... يا لعناد النساء ! وفي ما عدا ذلك سندحرم ،
ولنا الفوز المبين !

سميحة - أمين ! (تمضي باحثة عن صولجان « التنفس »
وشبكته وتتشدد) « يا ليله يا بيضا يا نهار سلطاني » (ثم تقادر
الفرقة بخطوات خفيفات راقصات) .

ثفيق - (يخرج الى الشرفة منتظراً مرورها في الحديقة

وعندما يراها ينحني قائلاً (سلمني عليه !

سميحة - (تتظاهر بعدم الفهم) أي شيء ؟ ثم تضم
أصابعها وتدنيها من شفيتها وتقول (: ما أحل اسمك
يا شفيق !

(الستار)

فهرس

صفحة

١١	السانحة الأولى
١٤	احرصي على قلبك
١٧	ذكرى قلعة بعلبك
٢٤	قتل النفوس
٣١	رسائلنا اليوم وبالأمس
٣٤	بين الدكتور شمیل والكاتب الأمريكي
٣٩	الأفكار القديمة
٤٣	إلى حضرة ب . ر .
٤٨	سلام الله يا مطر عليك
٥٠	بين الأدب والصحافة
٥٤	موعظة شهر الورود
٦١	الحركة بركة

صفحة

٦٥	دنا عيد الميلاد
٦٧	عام سعيد
٧١	أجوبة الفتيات
٧٤	وصف غرفة في مكتبة
٨٤	في محكمة الجنایات
٩١	د سعادة ملك اليونان
٩٤	ماك سويني
٩٦	زواج الملوك
٩٩	الشباب والموت
١٠٣	عائدة تتذكر
١١٣	حكاية السيدة التي لها حكاية
١٢٥	ساعة مع عيلة غربية
١٤٧	الفهرس

مؤلفات مي زيادة

أدب - نقد - اجتماع - تاريخ - عمران - فن - حضارة

باحثة البادية

غاية الحياة

كلمات وإشارات

المساواة

الصحائف

بين الجزر والمدّ

وردة اليازجي

عائشة تيمور

سوانح فتاة

ظلمات وأشعة

رجوع الموجة

ابتسامات ودموع

سوانح فتاة

ليس في الثلث الأول من القرن العشرين صوت أدبي
نسائي أشجى من صوت مي زيادة
وليس من فكر كفكرها يلتهم فيضيء داعياً إلى الحرية
والتقدم مجارة لركب الحضارة في شتى الميادين
والسبل.

وهي في كل ما كتبت تجسد طموح الأقلام المستنيرة
إلى التجديد الأدبي إبداعاً في الشكل التعبيري وفي
المضمون الفكري، فضلاً عن أنها تجسد طموح المرأة
العربية إلى الحياة وطموح الأمة إلى الوصول في حركة
العصر وبناء المجتمع.

سوانح فتاة مجموعة خواطر وآراء في الناس
والحياة، وبعض مقالات كتبتها مي في ظروف مختلفة
وبناء على اقتراح من ولي الدين يكن وإلحاح كبير من
جانبه.

الناشر